جامعة المنصورة
كلية التربية

فقه الحياء

فى ضوء الكتاب والسنة

إعداد
د. أحمد عبد السلام أبو الفضل
مدرس الدراسات الإسلامية
قسم اللغه العربيه والدراسات الإسلامية
كلية التربية – جامعة المنصورة

مجلة كلية التربية - جامعة المنصورة - العدد ٨١ - أكتوبر ٢٠١٢

فقه الحياء

فى ضوء الكتاب والسنة

د. أحمد عبد السلام أبو الفضل

مقدمة

الحمد لله بجميع محامده كلها ما علمت منها وما لم أعلم ، على جميع نعمه كلها ما علمت منها وما لم أعلم ، عدد خلقه كلهم ما علمت منهم وما لم أعلم .

يا ربنا لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد ، أزكى العالمين نفسا ، وأصفاهم روحًا ، وأطيبهم قلبًا ، وأحسنهم وأكملهم خَلْقًا وخُلُقًا ، المنزل عليه قول الله تعالى تكريما وتعظيمًا : ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ (١) .

اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وأشياعه وحزبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن خلق الحياء خلق جامع مانع ، جامع لمحاسن الأخلاق ، مانع من رذائلها ، وهو من أخص خصائص الإنسانية التى أودعها الله فى الإنسان جبلة وفطرة دون حاجة إلى معرفة واكتساب ، فهو أول ما يظهر فى الإنسان من قوة فهمه دالاً على بداية تمييزه . . فيفرق بين الأشياء حسنًا وقبحًا . . مستشعرًا ما فى الحسن من مكارم وفضائل تنشط لها النفس ، فيقدم على فعله ، ويرغب فيه وما فى القبيح من مساوئ أو رذائل تنقبض عنها النفس ، فيعزم على تركه وينفر منه .

بيد أن هذا الحياء الناشئ يحتاج إلى تعهد مستمر وتنمية دائمة . . إذ يختلف الأمر بعد ذلك بالانتقال إلى مرحلة البلوغ والاختلاط مع الآخرين ، والاطلاع على الأفكار والمعتقدات ، والعادات والآراء والبيئات المختلفة . . وهذا ـ لا شك ـ له أثره

---

(١) سورة النساء : ١١٣ .

البالغ - إيجابًا أو سلبًا - على حسب ما يختار منها الإنسان أو يميل إليها . . أو ما قدر له منها دون اختيار . . وهذا التأثر قد يغير الإنسان كلية حتى إنه ليقدم إقداما على ما كان يستحيى منه فى صغره معتقدًا أنه من الرذائل ، ويحجم إحجامًا على ما كان يفعله معتقدًا أنه من الفضائل ! !

ومن هنا يتحول الإنسان عن فطرته السليمة التى فطره الله عليها من الحياء ، ويظهر أثر ذلك على المجتمع ، فتنتشر فيه المنكرات لابسة ثوب فضائل الحق والعرف من الحرية ، والتقدم ، والرقى ، والتعبير عن الرأى ، وحقوق الإنسان . . وغيرها دون ضوابط ، وهذا ما حدث فعلاً كما يجسده واقعنا ، وهو نفسه ما يريده لنا أعداؤنا بل ما فعلوه بنا وخططوه لنا . . والأمثلة على ذلك لا تخفى على أريب .

ومن هنا تأتى حاجة الإنسان إلى فقه الأخلاق عمومًا ، والحياء خصوصًا ، وضوابطها فى ضوء الشرع هذه الضوابط التى قد يعرف بالعقل بعضها ويجهل بعضها الآخر ، وما يعرفه العقل من ضوابط سليمة يتفق - لا شك - مع ما يقرره الشرع ، وما لا يعرفه العقل أو يغيب عنه ، يهدى إليه الشرع أو يظهره له .

ولا عبرة بشُذَّاذ أو شُذَّان الآفاق من هنا أو هناك ممن يعبدون عقولهم ويجعلونها أصلاً ومرجعية لهم دون الوحى ، مع اختلافها وتناقضها مع الوحى من جهة . . ومع نفسها من جهة أخرى ، إضافة إلى تأثرها بالهوى والبيئة والعصبية المذهبية أو القبلية أو القومية أو غير ذلك فيحلون ويحرمون ويُحَسِّنون ويُقَبِّحون على حسب ذلك ! !

فلابد من الرجوع فى أصول الأخلاق وفقهها إلى أصول الشرع ثم يُراعى جانب العرف . فيما ليس فيه نص ، أو كان لا يتعارض مع الأصول العامة للشرع .

وعلى هذا قامت هذه الدراسة فى فقه الحياء تبحث فى أهميته ومعناه وفضله وأنواعه وأسباب اكتسابه وما يعين على تحقيقه وما يمدح منه وما يذم ، وما ينسب إليه

وليس منه ، والفارق بين حياء المخلوق والخالق ، مع ذكر صفة حيائه ﷺ ونماذج منه ونماذج من حياء آل بيته وأصحابه ترغيبًا فى الاقتداء بهم وتسهيلاً للامتثال بالحياء على أكمل وجه وأتمه ، مع ذكر كثير من الصور المنتشرة فى المجتمع دون اكتراث أصحابها مع تعارضها مع الحياء .

وكان الدافع لاختيارى هذا الموضوع هو تلك الصور المشار إليها والتى لا تخفى على أرباب الحياء والأدب الذين يعانون منها ويستحيون أشد الاستحياء برؤيتها . . مع قلة مبالاة أصحابها قحة وبذاء . . أو جهلا وافتراء .

ولا شك أن هذا الأمر قد زاد بعد ثورة ٢٥ يناير فى مصر والتى أسقطت مع النظام أقنعة كثيرة صنعتها فوبيا الخوف والنفاق، فظهرت أخلاق الناس على حقيقتها ، لأن الخوف والنفاق يظهران أخلاقًا زائفة غير ما ينطوى عليه باطن الإنسان . . وقد يكون الأول معذوراً ، لضرورة خوف الضرر ؛ أما الثانى فلا يكون إلا مأزوراً ، وقد تحول من نفاق السلطة الحاكمة . . إلى نفاق الثورة القائمة !! فرأينا كيف انقلبوا فغيروا وجوههم وجلودهم وكلامهم بل قلوبهم وحولوا قبلتهم للسلطة الجديدة على حسب ما تقتضيه مصالحهم الشخصية ومطامعهم النفعية . . !!

وهذا الصنف تندرج تحته طوائف عديدة من سياسيين ، وكُتَّاب ، وصحفيين ، وإعلاميين ، وإذاعيين ، وحزبيين ؛ حتى وصل الأمر إلى بعض كبار علماء الدين . . فأين الحياء ؟!!أين الحياء ؟!!

لو كان ثمة حياء وفقه له لما ظهر نفاق وخداع ، يمنعان من إظهار الحق وعمله ، وإنكار الباطل وهدمه ، خاصة ممن كانوا فى مقدمة المناصب والصفوف على جميع الأصعدة ، وفى جميع المجالات ، وكافة المستويات ، يهادون الظالم ، ويسبحون بحمده، ويمدحون ظلمه ، ولا يرون طوائف الشعب من المظلومين والمقهورين والمطحونين والمعدمين . . بل لا يرون إلا مصالحهم ومآربهم التى حققها وحفظها

لهم النظام ، فاشترى بها ذممهم وضمائرهم وعقولهم بل وقلوبهم وأجسادهم ودينهم فلم يعد فيهم شيء له ثمن أو قيمة !!

لو كان هناك حياء قائم يمنع الظلم والطغيان، ويقيم العدل والإحسان، ويحفظ كرامة بنى الإنسان ، لما احتجنا فى النهاية إلى ثورة عارمة . . بثمن باهظ ، وتضحيات فادحة . . والتى تكبدها أيضًا فى النهاية المظلومون والمقهورون !!

إننا فى أمَسِّ الحاجة إلى ثورة تربوية أخلاقية قيمية تكميلية . . تغير نفوسنا فتعيد إليها الخضوع أمام الحق ، تحت ظلال كثيفة من حمرة الجهل ورجفة الوجل . . هذا هو الحق ﴿وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾(١) ، كما ﴿لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(٢) .

هذا وقد قسمت هذه الدراسة إلى مقدمة ، وثمانية فصول ، وخاتمة .

أما المقدمة ففى سبب اختيارى لهذا الموضوع وخطة بحثه . ثم تأتى الفصول على النحو التالى :

الفصل الأول : أهمية خلق الحياء وحاجتنا إليه ، وأصله، وتعريفه ، وثمرته وفائدته .

الفصل الثانى : خلق الحياء فى القرآن والسنة والآثار .

الفصل الثالث : أنواع الحياء .

الفصل الرابع : حياء الله سبحانه وتعالى ، والفرق بينه وبين حياء العبد .

الفصل الخامس : الحياء الممدوح والحياء المذموم .

الفصل السادس : حياؤه ﷺ وحياء آل بيته وأصحابه .

---

(١) سورة الأحزاب : ٥٣ .

(٢) سورة الرعد : ١١ .

الفصل السابع : الحياء الحق ، وأسباب اكتسابه ، وعلامات المستحيى .

الفصل الثامن : صور اجتماعية منتشرة تتنافى مع الحياء وكماله ، وتشتمل هذه الفصول على مباحث سيأتى ذكرها فى الفواصل .

الخاتمة : فى أهم نتائج هذا البحث .

هذا ولا يخلو بحث من خلل ، ولا كلام بشر من زلل ، إذ لا عصمة لأحد إلا للأنبياء ، فما وفقت إليه فبعون من الله وتوفيقه ، وما أخفقت فيه فمن عجزى وضعفى وفقرى .

وحسبى أنى اجتهدت فى أن أنفع به نفسى والمسلمين ، فلئن حرمت أجر مجتهد مصيب . . فلن أحرم أجر مجتهد مخطئ ، بفضل الله وكرمه فكلاهما خير لمن عنده أهلية البحث ، وقواعده ، وضوابطه ، وهذا من محاسن ديننا الحنيف .

أسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم ، وأن يثقل به ميزان حسناتى ووالدى الكريمين ، وجميع من يقرأه ويعمل بما فيه من المسلمين ، وكذا المعين على نشره من المحبين . . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أفقر العبيد إلى عفو الملك العلام

خادم الإسلام

أبو محمد أحمد عبد السلام أبو الفضل

الفصل الأول

أهمية خلق الحياء، وأصله وتعريفه، وثمرته وفائدته.

وفيه مباحث:

المبحث الأول: أهمية خلق الحياء وحاجتنا إليه.

المبحث الثاني: الحياء أصل من أصول الدين والأخلاق.

المبحث الثالث: أصل خلق الحياء وتعريفه.

المبحث الرابع: تعريفات أهل الأذواق للحياء.

المبحث الخامس: ثمرة خلق الحياء.

المبحث السادس: فائدة خلق الحياء.

الفصل الأول

أهمية خلق الحياء، وأصله وتعريفه، وثمرته، وفائدته

المبحث الأول : أهمية خلق الحياء وحاجتنا إليه :

خلق الحياء خلق جامع لمكارم الأخلاق كلها ومحاسن الصفات بأسرها، فهو ملاك الخير، ومصدر كل بر، ومنبع كل فضل وعدل، ونواة كل مروءة وكرامة؛ وذلك لأن المتحقق به متحقق بجميع الأخلاق الفاضلة، فحياؤه يمنعه عن مقارفة الخطايا ومواقعة الصغائر والدنايا، ويدفعه إلى الترقى فى المقامات الأخلاقية حتى يصل إلى ما يمكن تحقيقه من كمالات السمو الإيمانى. ولذلك جعله الإسلام علامة بارزة من علامات كمال الإيمان، وصدق اليقين، بل هو الإيمان، بل هو الدين كله.

فالدين كله حياء، والحياء كله خير . . ولا يأتى إلا بخير، فشتان بين أهل الحياء، وبين أهل الصفاقة والبذاء ظاهرًا وباطنًا.

فالحياء يكسو الوجوه صفاء ونقاء وبهاء ووقارًا وهيبة، فإذا خلا منه وجه أصبح وقحًا صفيقًا سمجًا جامدًا منزوع الهيبة والرضا والقبول. . وما صفات الوجوه الحسية إلا انعكاس لصفات القلوب المعنوية، فكل إناء بما فيه ينضح، وما من وجه إلا وعليه كسوة من صفات القلب تبرز.

فحياء الوجوه من حياء القلوب، وحياء القلوب من حياتها.

ومن هنا تتبين أهمية خلق الحياء واتصاله الوثيق بحال القلب. وإذا علم هذا تبين وجه حاجة الإنسان بل المجتمع الإنسانى بأسره إلى خلق الحياء خاصة فى هذا الزمان الذى قل فيه الحياء أو كاد ينعدم فى الناس حتى صار ما يستحى منه شرعًا وطبعًا وعرفًا هو عين ما يفتخر به ! !.

وأصبحت المشاهد والمناظر التى يُستحيا منها مألوفة يفعلها أصحابها باستهتار وصفاقة لا مثيل لهما !! بل ربما ـ مع ذلك ـ أنكروا على أهل الحياء حياءهم واتهموهم بالتخلف والرجعية . . وليس هناك تخلف ولا رجعية إلى ما دون مستوى الحيوانية إلا بخلع خلق الحياء واستبداله بالقحة والابتذال ، بل إن ذلك ردة إلى الجاهلية الأولى بل إلى ما هو أشد ، فالجاهلية الأخيرة أعظم خطرًا من الجاهلية الأولى . . لأن الجاهلية الأولى لم يكن معها دين ، ومع ذلك كانت مفردات كثيرة من خلق الحياء سائدة فى مجتمعها بمقتضيات الطبع والعرف . . والجاهلية الأخيرة معها خير دين ، لكن طبائع الفاسدين وأعراف الجاهلين وأهواء المنحرفين طغت على أحكام الدين بجهل حينًا . . وبقصد أحيانًا ، وأداتهم الأساس فى ذلك رفع خلق الحياء من المجتمع شيئًا فشيئًا ، ومقصودهم من ذلك إفساد الإنسان والمجتمع معًا وإبعادهما عن حظيرة الدين وأحكامه وآدابه ، فبقدر ما يرفع من خلق الحياء بقدر ما يرفع من أحكام الدين وآدابه وشعبه ، فما من معصية لله وقعت فى الكون إلا بتغييب خلق الحياء عن القلب ، وما من طاعة أقيمت إلا بحضور هذا الخلق فيه ، والناس فى ذلك متفاوتون ، وعلى قدر تفاوتهم فى خلق الحياء تتفاوت معاصيهم ودرجات إيمانهم جميعًا ، ولذلك قال ﷺ **«الحياء والإيمان قرنا جميعًا ، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر»** (١)، فيرفع من إيمان العبد بقدر ما يرفع من حيائه ، ويبقى من إيمانه بقدر ما يبقى من حيائه ، هذا إذا كان حياؤه إيمانيا ، أما إذا كان حياؤه طبيعيًا ، فيرفع من إنسانيته بقدر ما يرفع من حيائه ، وسواء أكان الحياء إيمانيا ـ أى : باعثه الدين ومراقبة الحق ، أم كان طبيعيا ـ أى باعثه عفة النفس ومراقبة الخلق ، فإنه لا غنى للإنسان ولا للمجتمع عنهما ، فإذا ارتفعا عن إنسان ارتفعت عنه كل المعانى الإنسانية النبيلة ،

---

(١) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (١ / ٦٦) وقال : « صحيح على شرطهما» وأقره الذهبى ، والبيهقى فى « شعب الإيمان » (١٠ / ١٦٦) ، وأبو نعيم فى « حلية الأولياء » (٤ / ٢٩٧) مرفوعًا عن ابن عمر ، وصححه الحافظ العراقى (فيض القدير ٣ / ٤٢٦) .

وإذا انهزما فى مجتمع انهدمت أركانه ، واندثرت حضارته ، ولم يبق لأيهما من القبائح والدنايا والرذائل حصن ولا عصمة .

يقول الإمام ابن القيم فى بيان أهمية خلق الحياء : « تأمل هذا الخلق الذى هو من أفضل الأخلاق ، وأعظمها قدرًا ، وأكثرها نفعًا بل هو خاصة الإنسانية ، فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شىء ، ولولا هذا الخلق لم يُقْرَ ضيف ، ولم يوف بالوعد ، ولم تؤد أمانة ولم يقض لأحد حاجة ، ولا تحرى الرجل الجميل فآثره والقبيح فتجنبه ، ولا ستر له عورة ولا امتنع من فاحشة ، وكثير من الناس لولا الحياء الذى فيه لم يؤد شيئا من الأمور المفترضة عليه ولم يرع لمخلوق حقا ، ولم يصل له رحمًا ، ولا برّ له والدًا . فإن الباعث على هذه الأفعال إما دينى ، وهو رجاء عاقبتها الحميدة ، وإما دنيوى علوى وهو حياء فاعلها من الخلق فتبين بهذا أنه لولا الحياء إما من الخالق ، أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها» (١) .

إذن فالحياء الإيمانى هو أكبر سلطة ذاتية تجبر الإنسان على أفعال الكمال ، معربة عن إنسانيته ، وكمال إيمانه ، وتمام عقله ، كما تجبر المجتمع على شعب الإيمان ، معربة عن رقيه وكمال تحضره وبلوغ رشده .

المبحث الثانى : الحياء أصل من أصول الدين والأخلاق :

فظهر بذلك شدة حاجة الإنسان ، بل المجتمع الإنسانى كله إلى هذا الخلق الذى هو أصل من أصول الدين كما هو أصل من أصول الأخلاق . . يصل المتحقق به إلى جميع المقامات الدينية والأخلاقية . . ، ومن ليس عنده حياء لا يستطيع أن يصل إلى حال ولا مقام ولا إلى خير أبدًا ؛ بل لا يزال يتدرج من سىء إلى أسوأ حتى يصبح جريئًا على الله جريئًا على الناس لا يرده عن الآثام شىء ؛ إذ الحياء هو الذى يمنع منها .

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ، لابن القيم ١ / ٤٢٢ ، بتصرف يسير .

فمن عنده حياء لا يترك شيئًا من العبادات أبدًا، ثم هو لا يستطيع أن يقتل أو يسرق، أو يهتك أعراض الناس، أو يأكل لحومهم، أو يترفع عليهم، أو يجابههم بما يكرهون، أو يشتمهم ويسبهم، بل لا يستطيع أن يرفع صوته عليهم، أو يرفع صوته فى المسجد، أو يمد رجليه فى وجه أخيه، أو يمد يده للناس، أو يطلق لسانه فى أهل العلم والفضل، أو يضرب زوجته لأتفه الأسباب، أو يختال أو يتكبر أو غير ذلك مما يفعله من لا حياء عندهم . . ربما وهم يضحكون.

ولذلك كان الحياء أصلاً من أصول الدين والأخلاق؛ فجميع الأخلاق ترد إليه وتبنى عليه.

والحاصل : أن من كان عنده حياء دفعه إلى كل خلق سنى ، ومنعه من كل خلق دنى ، والعكس بالعكس ، ومن تأمل قوله ﷺ : « **الحياء لا يأتى إلا بخير** »(١)، وربطه بقوله ﷺ : « **إذا لم تستحى فاصنع ما شئت** »(٢) تبين له صدق هذا القول .

المبحث الثالث : أصل خلق الحياء وتعريفه:

أصل الحياء من الحياة اشتقاقًا ومعنى، وهذا من محاسن التوافقات أن تكون أصل كلمة الحياء مشتقة من عمق معناه.

فكلمة الحياء مشتقة لغة من مادة الحياة، والغيث يسمى حيا ـ بالقصر ـ لأن به حياة الأرض ،ولذلك قال العلماء : الحياء من الحياة، فشدة الحياء فى الإنسان دليل

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى : كتاب الأدب ، باب الحياء ، ومسلم : كتاب الإيمان ، باب بيان عدد شعب الإيمان ، عن عمران بن حصين رضى الله عنه .

(٢) أخرجه البخارى : كتاب الأدب ، باب إذا لم تستحى فاصنع ما شئت ، عن أبى مسعود عقبة بن عمرو رضى الله عنه .

(**تنبيه**) : إثبات الياء فى (تستحى) أولى وهو هكذا فى أصل البخارى ، وهو لغة أهل الحجاز ، وبها جاء القرآن فى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً ﴾ بيائين، وإن كانت اللغة الثانية جائزة لكنها قليلة .

على شدة حياة قلبه، وضعف الحياء دليل على ضعف حياة قلبه، وانعدام الحياء عند الإنسان دليل على موت قلبه.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : « فكلما كان القلب أحيا كان الحياء أتم»(١)، وقال: « فمن لا حياء فيه فهو ميت فى الدنيا، شقى فى الآخرة »(٢).

وقال الإمام الواحدى: « قال أهل اللغة: الاستحياء من الحياة، واستحيا الرجل من قوة الحياة فيه لشدة علمه بمواقع العيب »(٣).

ومعناه فى اللغة: التوبة والحشمة وانقباض النفس عن القبائح، يقال: حيى منه حياء واستحيا واستحى يستحيى ويستحى، يتعديان بحرف وبغير حرف، تقول: استحيا منك واستحياك، واستحى منك واستحاك.

والأصل فيها: بياءين وهى لغة أهل الحجاز، وبها نزل القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً﴾(٤)، وفى قراءة بالتخفيف(٥)، وهى لغة تميم وبكر بن وائل، ورجل حييٌّ: ذو حياء بوزن فعيل، والأنثى بالهاء حَيِيَّة، والجمع حَيُوا(٦).

أما معناه فى اصطلاح العلماء فله تعريفات كثيرة متقاربة منها منها: قول ابن مسكويه: « انحصار النفس خوفًا من قبيح يظهر منها»(٧).

وقال الراغب الأصفهانى: « الحياء انقباض النفس عن القبائح وتركها »(٨).

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٢٦٥.

(٢) الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى ص ٧١.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ١ / ٢٨١.

(٤) سورة البقرة: ٢٦.

(٥) قرأ بالتخفيف ابن مُحيْصن عن ابن كثير، وهى قراءة غير متواترة.

(٦) لسان العرب. مادة: حيا.

(٧) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ص ٦٧.

(٨) المفردات. مادة: حيى، والذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٨٨.

وقال الزمخشري : « تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يعاب به ويذم » (١) .

وقال الجرجاني : « انقباض النفس من شيء وتركه حذراً من اللوم فيه » (٢) .

وقال ابن مفلح : « وحقيقة الحياء خلق يبعث على فعل الحسن وترك القبيح» (٣) .

وقال ابن عجيبة : « الحياء خلق كريم يمنع صاحبه من ارتكاب ما يعاب به » (٤) .

ومن أجمعها وأجملها قول العلماء : حقيقة الحياء خلق يبعث على ترك القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق ، ذكره الإمام النووي(٥) .

وعلامته في النفس : الانفعال بالتألم والانقباض عند ارتكاب ما يعاب به أو يذم أو وصفه به أو نسبته إليه .

وعلامته في الجوارح : بالتغير والانكسار خجلاً ، وقد يصاحب ذلك حمرة في الوجه أو صفرة مع خفض الرأس وانخفاض الصوت وغض الطرف وهكذا .

المبحث الرابع : تعريفات أهل الأذواق للحياء:

قال الإمام القشيري ـ رحمه الله ـ : «واعلم أن الحياء : يوجب التذويب ؛ فيقال : الحياء ذوبان الحشا لاطلاع المولى .

ويقال : الحياء : انقباض القلب لتعظيم الرب » .

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ١ / ٢٦٣ .

(٢) التعريفات ص ٨٤ .

(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية ٢ / ٢٧٧ .

(٤) البحر المديد ١ / ٩٠ .

(٥) رياض الصالحين ص ٢٢٧ ، وشرح صحيح مسلم ١ / ٢٨١ .

قال: « وسئل الجنيد عن الحياء فقال: الحياء رؤية الآلاء، ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء» (١).

قلت: وهذه الحالة تستوجب دوام الشكر والمراقبة للرب، فإن صح للإنسان ذلك امتنع عن معصية الله واستحيا منه كأنه يراه.

المبحث الخامس: ثمرة خلق الحياء:

فظهر بذلك أن الحياء خلق قوامه المراقبة، ومقامه الإحسان فلا حياء إلا بمراقبة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (٢) أي: مراقب لجميع أقوالكم وأعمالكم وأحوالكم، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٣)، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ (٤)، فالله يراك.. يرى مكانك، ويسمع كلامك، ويعلم سرك وعلانيتك، ولا يخفى عليه شيء من أمرك، يعلم السر وأخفى أي: ما لا تعلمه أنت من نفسك، فكيف لا تستحيي منه وهو الرقيب ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ؟ (٥).

فمن المراقبة يتولد الحياء ويعظم، لكن شتان بين من يراقب الخلق وبين من يراقب الحق، ولا إحسان إلا بحياء فهو نهايته ومستقره.

فثمرة خلق الحياء: الإحسان وهو المشار إليه في حديث جبريل: **«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»** (٦).

---

(١) الرسالة القشيرية: باب الحياء ٢/ ٤٥٥، ٤٥٨، ٤٥٩ وقال أيضًا: « وقال ذو النون المصرى: الحياء وجود الهيبة فى القلب مع وحشة ما سبق منك إلى ربك.. فالحب ينطق، والحياء يسكت، والخوف يقلق ».

(٢) سورة النساء: ١.
(٣) سورة البروج: ٩.

(٤) سورة العلق: ١٤.
(٥) سورة فصلت: ٥٣.

(٦) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ونهاية هذا المقام وغايته المشاهدة القلبية والبصرية، فالأولى فى الدنيا، والثانية فى الآخرة بلا كيفية.

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (١)، وقال: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (٢)، فالحسنى: الجنة، والزيادة والمزيد: رؤية الملك المجيد.

وكل هذا لا يتحقق للعبد أبدًا إلا إذا تحقق بخلق الحياء وهى ثمرته العظمى.

المبحث السادس: فائدة خلق الحياء:

للحياء فوائد كثيرة نجملها فى عشرة أمور:

(١) يقوى إيمان صاحبه.. حتى يدخله الجنة.

(٢) يمنع صاحبه من المعاصى والذنوب حياء من الله.

(٣) يدفعه للتحلى بكل خلق كريم.. والتخلى عن كل خلق ذميم.. حتى يبعده عن رذائل الدنيا وفضائح الأخرة.

(٤) يزيد فى خشوعه حتى يدرجه فى مصاف الخاشعين المخبتين.

(٥) يكسو صاحبه حُلَّة الوقار والهيبة، ويمنعه من فعل ما يخل بالمروءة.

(٦) يزهد العبد فى الدنيا ويحفظه منها.

(٧) يذكر العبد بالآخرة ويرغبه فيها.

(٨) يعين صاحبه على التحقق بمقام المراقبة.

(٩) يمنحه محبة الله تعالى ورضوانه.

(١٠) يحفظ المجتمع كله من الدنايا.

---

(١) سورة يونس: ٢٦. (٢) سورة ق: ٣٥.

الفصل الثانى

خلق الحياء فى القرآن والسنة والآثار .

وفيه مباحث :

المبحث الأول : الآيات القرآنية الواردة فى الحياء لفظاً .

المبحث الثانى : الآيات القرآنية الواردة فى الحياء معنى .

المبحث الثالث : الحياء فى السنة النبوية .

المبحث الرابع : بعض الآثار والأقوال الواردة فى منزلة الحياء وفضله والحث على التخلق به .

الفصل الثانى

خلق الحياء فى القرآن والسنة والآثار

المبحث الأول : الآيات القرآنية الواردة فى الحياء لفظا :

الآية الأولى : قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾[١] .

سبب نزول الآية : روى الواحدى فى أسباب النزول[٢] عن ابن عباس ، والطبرى فى تفسيره[٣] عنه وعن ابن مسعود وناس من أصحاب النبى ﷺ : لما ضرب الله تعالى هذين المثلين للمنافقين يعنى قوله : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾[٤] ، وقوله : ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾[٥] الآيات الثلاث ، قالوا : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال ، فأنزل الله هذه الآية .

وعلى هذا فالآية نزلت فى المنافقين عقيب أمثال تقدمتها .

وروى الواحدى[٦] عن الحسن وقتادة : لما ذكر الله الذباب والعنكبوت فى كتابه وضرب للمشركين به المثل ضحكت اليهود وقالوا : ما يشبه هذا كلام الله فأنزل الله هذه الآية . وعلى هذا فالآية نزلت فى اليهود .

---

(١) سورة البقرة : ٢٦ .

(٢) أسباب نزول القرآن ص ٢٦ .

(٣) تفسير الطبرى ١ / ٢٧٢ .

(٤) سورة البقرة : ١٧ .

(٥) سورة البقرة : ١٩ ، ٢٠ .

(٦) أسباب نزول القرآن ص ٢٦ ، ٢٧ .

وروى الطبرى فى تفسيره [1] عن قتادة : قال : لما ذكر الله العنكبوت والذباب قال المشركون : ما بال العنكبوت والذباب يُذكران ؟ فأنزل الله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا** ﴾ .

وفى رواية الواحدى [2] عن ابن عباس : أن الله ذكر آلهة المشركين فقال : ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [3] وذكر كيد الآلهة فجعله كبيت العنكبوت فقالوا : أرأيت حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد ، أى شىء يصنع بهذا ؟ فأنزل الله هذه الآية . . وهذه الرواية ضعفها السيوطى [4] .

وعلى هذا فالآية نزلت فى المشركين واليهود بعد أمثال تقدمت فى سورة أخرى .

وقد رجح الإمام الطبرى فى تفسيره وابن كثير فى تفسيره والسيوطى فى أسباب النزول السبب الأول فقال الطبرى : « أولى ذلك بالصواب وأشبهه بالحق ما ذكرنا من قول ابن مسعود وابن عباس ، وذلك أن الله ـ جل ذكره ـ أخبر عباده أنه لا يستحيى أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ، عقيب أمثال قد تقدمت فى هذه السورة ، ضربها للمنافقين دون الأمثال التى ضربها فى سائر السور غيرها ، فلأن يكون هذا القول جوابًا لنكير الكفار والمنافقين ما ضرب لهم من الأمثال فى هذه السورة أحق وأولى من أن يكون ذلك جوابًا لنكيرهم ما ضرب لهم من الأمثال فى غيرها من السور » [5] .

---

(١) تفسير الطبرى ١ / ٧٢٣ .

(٢) أسباب نزول القرآن ص ٢٧ .

(٣) سورة الحج : ٧٣ .

(٤) أخرجها الواحدى من طريق عبد الغنى بن سعيد الثقفى ، قال السيوطى معلقًا عليها فى أسباب نزول القرآن ص ٢٢ : « عبد الغنى واه جدًا » .

(٥) تفسير الطبرى ١ / ٢٧٣ .

وعلل ابن كثير ترجيح الطبرى بقوله : « لأنه أمسُّ بالسورة وهو مناسب »[1].

وقال السيوطى : « القول الأول أصح إسناداً وأنسب بما تقدم أو بالسورة وذكر المشركين لا يلائم كون الآية مدنية »[2].

قلت : وهذا هو الظاهر .

وأما ما روى عن أنس من أن الآية مثل ضربه الله للدنيا أن البعوضة تحيا ما جاعت فإذا سمنت ماتت ، وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب الله لهم هذا المثل فى القرآن إذا امتلأوا من الدنيا ريًّا أخذهم الله عند ذلك[3] ، فهو بعيد وغير مناسب للسياق .

وصفة الحياء وإن كانت ثابتة لله تعالى على مراده إلا أن حقيقته المعروفة لنا مستحيلة عليه تعالى لأنها من صفة الحوادث ، فيراد منه لازمه اللائق به من الترك والامتناع أو الفعل والعطاء على ما سيأتى بيانه .

ولذا اختلف المتأولون فى معنى (يستحيى) هنا على ثلاثة تأويلات[4] :

الأول : لا يخشى ، وهو ما اختاره الطبرى لما فى التنزيل : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾[5] بمعنى : وتستحيى الناس والله أحق أن تستحييه قال : «فمعنى قوله إذًا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً ﴾ إن الله لا يخشى أن يصف شبهًا لما شبه به »[6].

والثانى : لا يترك ، قال الزمخشرى : « أى : لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيى أن يتمثل بها لحقارتها »[7].

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٦٤ . (٢) أسباب نزول القرآن ص٢٣ .

(٣) تفسير الطبرى ١ / ٢٧٢ .

(٤) النكت والعيون ، للماوردى ١ / ٧٩ ، ٨٠ ، وتفسير القرطبى ١ / ٢٥٩ .

(٥) سورة الأحزاب : ٣٧ . (٦) تفسير الطبرى ١ / ٢٧٥ .

(٧) تفسير الزمخشرى (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل) ١ / ٢٦٣ .

والثالث : لا يمتنع ، أى : إن الله لا يمتنع حياء من أن يضرب الأمثال كيفما كانت ، بأى شىء كان صغيراً أو كبيراً .

قلت : وهذه المعانى متقاربة ، وكلها تأويلات للحياء بلازم معناه اللائق به جل جلاله . وإن كان المعنى الأخير هو الأليق بمراعاة سبب النزول وعبر عنه ابن كثير (١) بلفظ : لا يستنكف ، وهو من معانيه . والقصد أن ضرب المثل فى الحق بالشىء الصغير الحقير لكشف المعنى وتقريبه وبيان الغرض المطلوب لا يستحيا منه ، وهو كضرب المثل بالشىء الكبير الجليل ، إذ الأمر لا يختلف أمام قدرة الله بين عرش وفرش ، كما لا يختلف عند المؤمن بين ما ضرب الحق به المثل بعوضةً أو فيلاً ما دام من عند الحق سبحانه وتعالى ، فالأمر عنده سواء ، والمهم الفهم عن الله فيما أراد ثم التحقق بذلك المراد .

الآية الثانية : قوله تعالى : ﴿ **فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾(٢) .

يخبر الله سبحانه وتعالى عن إحدى بنات شعيب ـ عليه السلام ـ على القول المشهور عند المفسرين(٣) وهى صفورة (٤) ، أن أباها قد أرسلها بدعوة منه إلى موسى

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١ / ٦٤ .

(٢) سورة القصص : ٢٥ .

(٣) هذا القول مروى عن الحسن ومالك بن أنس وغيرهما ، وقيل : بل كان ابن أخى شعيب ، وقيل : كان رجلا مؤمنا من قوم شعيب . قال الطبرى : «وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر ، ولا خبر بذلك تجب حجته ، فلا قول فى ذلك أولى بالصواب» (تفسير الطبرى ٨ / ٦٣٧٨) وقال ابن كثير : « وما جاء فى بعض الأحاديث من التصريح بذكره ـ أى : شعيب ـ فى قصة موسى لم يصح إسناده » (تفسير ابن كثير ٣ / ٣٩٨) .

(٤) تفسير الطبرى ٨ / ٦٣٧٧ .

ـ عليه السلام ـ ليكرمه ويكافئه على سقيه لابنتيه غنمهما لما رآهما لا تستطيعان المزاحمة على ماء مدين لحيائهما وتصونهما عن الاختلاط بالرجال وضعفهما عن المزاحمة أيضًا ، وكان شعيب شيخًا كبيرًا لا يستطيع ورود الماء لضعفه عن المزاحمة ، وليس له رجل ، فاضطر إلى إخراج ابنتيه للسقى .

قال ابن عاشور : « والفاء فى ﴿ فَجَاءَتْهُ ﴾ مؤذنة بسرعة إرسال شعيب ابنته وعدم التريث ، وذكر ﴿تَمْشِي ﴾ ليبنى عليه قوله ﴿ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾ وإلا فإن فعل﴿ فَجَاءَتْهُ ﴾ مغن عن ذكر ﴿ تَمْشِي ﴾ و﴿عَلَى ﴾ للاستعلاء المجازى ، مستعارة للتمكن من الوصف ، والمعنى : أنها مستحيية فى مشيها أى : تمشى غير متبخترة ولا متثنية ولا مظهرة زينة » (١) . قال ابن كثير : « أى : مشى الحرائر » (٢) .

والاستحياء كالحياء ، والزيادة للمبالغة فى الحياء كالإجابة والاستجابة ، وفى سبب استحيائها قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : بأنها لم تكن سلفعًا من النساء خرّاجة ولاجة قائلة بيدها على وجهها : ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ (٣) .

وفى رواية ابن كثير : جاءت تمشى على استحياء قائلة بثوبها على وجهها ، ليست بسلفع من النساء دلاجة ولاجة خرّاجة ، وقال : « هذا إسناد صحيح »(٤) .

والسلفع من النساء والسلفعة : الجريئة على الرجال السليطة القليلة الحياء (٥) .

قلت : وهذا إنما يكون بكثرة خروجها من بيتها واختلاطها دون حاجة ، مما يأخذ من حيائها ووقارها .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠ / ١٠٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣ / ٣٩٧ .

(٣) تفسير الطبرى ٨ / ٦٣٧٥ .

(٤) تفسير ابن كثير ٣ / ٣٩٧ .

(٥) لسان العرب . مادة : سلفع .

وقد تجلى مظهر حيائها فى هيئة مشيتها وقد سترت وجهها بيدها وثوبها مبالغة فى الحياء .

وفسّر الحسن حياءها ببعدها من البذاء (١) .

قلت : وهذا ظاهر فى أدب كلامها واختصارها ، وهو لا يتعارض مع قول عمر رضي الله عنه ، فمن معانى السلفع لغة : البذيئة (٢) .

قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ : «وهذا تأدب فى العادة لم تطلبه طلبًا مطلقًا ، لئلا يوهم ريبة » (٣) .

قلت : أى قيدت طلبها لضيافته وإكرامه بدعوة أبيها حتى لا يُتوهم أن الدعوة إلى الدار منها ، ودفع هذا التوهم ليس لمظنة أنه قد يخطر فى قلب المدعو شىء يتعلق بعفافه أو بعفافها ، بل لكمال حيائها ، وحتى لا يظن بها فعل أدنى ما قد يخدش حياءها .

وفى هذا من الدلائل على قوة إيمانها وشرف عنصرها ورجاحة عقلها وكمال حيائها ما لا يخفى .

وفيه : فضيلة ظاهرة لخلق الحياء خاصة للنساء عند ضرورة التعامل مع غير المحارم .

فإن قيل : كيف تعاملت بهذا الاحتياط مع موسى ـ عليه السلام ـ وهو نبى ؟
قلت : أولا : لم تكن تعرفه ، وثانيًا : أنه لم يكن قد نُبِّئ بعد كما هو ظاهر بعد ذلك فى آيات السورة .

---

(١) تفسير الطبرى ٨ / ٦٣٧٥ ، ٦٣٧٦ .

(٢) لسان العرب . مادة : سلفع .

(٣) تفسير ابن كثير ٣ / ٣٩٧ .

الآية الثالثة : قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنۢ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾(١) .

هذه آية الحجاب ولها قصة فى سبب نزولها تعين على معرفة تفسيرها ، وهى مروية عن أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، ولا شك أنه كان أعلم بحياة رسول الله ﷺ الخاصة من غيره للملازمة والاطلاع على ما لا يطلع عليه غيره غالبًا ، ولذلك قال ـ كما فى صحيح البخارى ـ : أنا أعلم الناس بهذه الآية آية الحجاب ، وفى رواية للبخارى أيضا : كنت ابن عشر سنين مقدم النبى ﷺ المدينة فخدمت رسول الله عشرًا حياته ، وكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل . وقد رويت هذه القصة بروايات متعددة فى الصحيحين (٢) وغيرهما ، وحاصلها : أن النبى ﷺ لما تزوج زينب بنت جحش صنع طعامًا ، ودعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون ، فأخذ النبى ﷺ كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام فلما قام ، قام من قام ، وبقى ثلاثة يتحدثون فى البيت بعد الطعام وأطالوا الحديث ، والنبى ﷺ يستحيى منهم أن يقول لهم شيئًا حتى جعل يخرج ثم يرجع وهم قعود يتحدثون حتى شعروا أنهم قد ثقُلُوا عليه فخرجوا ، فأرخى رسول الله ﷺ الستر ودخل فأنزل الله عز وجل هذه الآيات ، فخرج وقرأهن على الناس ، وقال ابن عباس : نزلت فى

---

(١) سورة الأحزاب : ٥٣ .

(٢) صحيح البخارى : كتاب التفسير ـ سورة الأحزاب ـ ، باب ﴿لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ ، وكتاب الاستئذان ، باب آية الحجاب ، وباب من قام من مجلسه أو بيته ولم يستأذن أصحابه أو تهيأ للقيام ليقوم الناس ، وصحيح مسلم : كتاب النكاح ، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس .

ناس من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبى ﷺ فيدخلون قبل أن يدرك الطعام ، فيقعدون إلى أن يدرك ثم يأكلون ولا يخرجون (١) ، قال ابن جزى : «والقول الأول أشهر ، وقول ابن عباس أليق بما فى الآية من النهى عن الدخول حتى يؤذن لهم . . . والآية تضمنت الحكمين » (٢) .

وروى غير ذلك فى أسباب نزول الآية (٣) ، ولا مانع من تعدد الأسباب ، كما قال الحافظ ابن حجر (٤) ، وقال القرطبى - بعد أن ذكر بعضها - : « ولا بُعْدَ فى نزول الآية عند هذه الأسباب كلها » (٥) .

والآية تأديب للمؤمنين فى أمر طعام الوليمة ، وإطالة الجلوس بعدها فى البيوت ، أو الضيافة عمومًا وبسببها نزل الحجاب .

ومعنى الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ ﴾ أى : إلا مدعويين إلى طعام ﴿ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ (٦) أى : غير منتظرين إدراكه ونضجه وساعة أكله ، ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ أى : إذا أذن لكم فادخلوا ، فالأمر للندب لأن إجابة الدعوة سنة . وقال القرطبى : « أكد المنع وخص وقت الدخول بأن يكون عند الإذن على جهة الأدب ، وحفظ الحضرة الكريمة من الباسطة المكروهة » (٧) .

---

(١) تفسير القرطبى ١٤ / ٢١٥ .

(٢) تفسير ابن جزى (التسهيل لعلوم التنزيل) ٢ / ١٩٤ .

(٣) منها : قول عمر رضى الله عنه : يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب (صحيح البخارى : كتاب التفسير - سورة الأحزاب - باب قوله : ﴿ لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ ﴾ . . . عن أنس . وانظر : كتاب الاستئذان أيضًا ، باب آية الحجاب ، وأسباب نزول القرآن ، للواحدى ص ٣٧٤ ، وأسباب نزول القرآن ، للسيوطى ص ٣٥٨ .

(٤) فتح البارى ٨ / ٤٣١ .

(٥) تفسير القرطبى ١٤ / ٢٢١ .

(٦) أَنَى الشىء يأنِى أَنْيًا وإِنًى وأَنًى وهو أَنِىٌّ : حان وأدرك (لسان العرب . مادة : أَنَى) .

(٧) تفسير القرطبى ١٤ / ٢١٧ .

﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ أي : تفرقوا فقد زال السبب المبيح للجلوس ، فالأمر هنا للوجوب لأن دخول المنزل بغير إذن حرام ، فإذا انقضى السبب المبيح للدخول عاد الحكم إلى الأصل ، لكن هذا قد يغفل عنه بسبب الإذن العارض وعدم تقديره بقدره وتحديده بحده مما قد يؤدى إلى حرمة المكث بعد الطعام إن ترتب عليه أذى .

قال الألوسى : « والظاهر حرمة اللبث على المدعو إلى طعام بعد أن يطعم إذا كان فى ذلك أذى لرب البيت وليس ما ذكر مختصًا بما إذا كان اللبث فى بيت النبى ﷺ »(١) .

﴿وَلَا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أى : لا تمكثوا مستأنسين لحديث بعضكم بعضا كما حدث فى قصة وليمة زينب رضى الله عنها ، ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ﴾ وذلك بتضييق البيت عليه وعلى أهله ، وتضييق وقته أيضًا لاشتغاله بكم ﴿فَيَسْتَحْيِى مِنكُمْ﴾ أى : من إخراجكم ، يمنعه من ذلك حياء كرمه ، إذ كانوا فى بيته ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ﴾ أى : لا يمتنع من بيانه وإظهاره ، ولا يتركه ترك الحيى منكم ، ولذا نهاكم عن الدخول بغير إذن وأمركم بالخروج عند انقضاء المقصود .

قال القرطبى : « ولما كان ذلك ـ أى : الامتناع من إظهار الحق حياء ـ يقع من البشر لعلة الاستحياء نفى عن الله تعالى العلة الموجبة لذلك فى البشر »(٢) .

والمراد بالحق هنا : إخراجهم ، ووضع موضعه لتعظيم جانبه(٣) .

قال حماد بن زيد : هذه الآية نزلت فى الثقلاء ، وقال إسماعيل بن أبى حكيم : وهذا أدبٌ أدَّبَ الله به الثقلاء .

وقال ابن أبى عائشة : حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم(٤) .

---

(١) تفسير الألوسى (روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى) ١١ / ٣٣١ .

(٢) تفسير القرطبى ١٤ / ٢١٨ .

(٣) التفسير الوسيط ٣ / ٢١٤ .

(٤) تفسير القرطبى ١٤ / ٢١٥ .

وروى هذا عن عائشة رضى الله عنها أيضًا (١) .

ثم شرع فى بيان ما ترتب على ذلك من حجاب لزوجاته ﷺ ولنساء الأمة فقال : ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا﴾ أى : حاجة ﴿فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أى : من وراء ستر يستر بينكم وبينهن ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أى : من خواطر الشيطان ونوازع الفتنة . ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ بمكثكم طويلاً فى بيته اعتمادا على حياء كرمه ، ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ حيث قال رجل (٢) : لو توفى رسول الله لتزوجت عائشة ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أى : ذنبا كبيرًا ، وتقييد التعظيم بكونه عند الله للتخويف والتحذير .

قلت : وفى الآية دروس فى الحياء :

ففيها : نهى للمؤمنين عن دخول بيوت الناس عمومًا للطعام وغيره بدون إذن أصحابها كما كان يفعل أهل الجاهلية ، فليس هذا من الحياء .

وفيها : إرشاد إلى عدم إطالة الجلوس للضيافة وغيرها كما يفعل الثقلاء ، فليس هذا من الحياء .

وفيها : نهى عن ترقب طعام الناس والدخول عليهم إذا قارب الاستواء أو النضج كما يفعل المتطفلون ، فليس هذا من الحياء ؛ بل هو حرام كما قال ابن كثير :

---

(١) تفسير ابن جزى (التسهيل لعلوم التنزيل) ٢ / ١٩٤ .

(٢) قيل : هو طلحة بن عبيد الله ، وأنه ندم وتاب وكفر عنها بالحج ماشيا والإعتاق والجهاد ، وقد رد هذا القول الإمام ابن عطية والإمام القرطبى وغيرهما لأنه أليق بالمنافقين ، وقال ابن عاشور : «لا شك أنه من موضوعات الذين يطعنون فى طلحة بن عبيد الله وهذه الأخبار واهية الأسانيد ودلائل الوضع واضحة . . . فلاشك أنه قول بعض المنافقين لما يؤذن به قوله تعالى عقب هذه الآيات : ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآية » . المحرر الوجيز لابن عطية ٤ / ٣٩٦ ، وتفسير القرطبى ١٤ / ٢١٩ ، والتحرير والتنوير ، لابن عاشور ٢٢ / ٩٣ ، وأسباب نزول القرآن ، للواحدى ص ٣٧٤ ، وللسيوطى ص ٣٥٩ .

« إن هذا مما يكرهه الله ويذمه ، وهو دليل على تحريم التطفل ، وهو الذى تسميه العرب الضَّيْفَن » (١) .

وفيها : بيان كيفية التعامل مع نساء المؤمنين من غير المحارم عند طلب حاجة منهن فى البيوت كعارية الأوانى ، أو سؤال عن شىء ، وأن ذلك يكون من وراء حجاب كباب أو ستر لأن المرأة فى هذه الحالة عادة ما تكون مبتذلة فى شئون بيتها ، يظهر منها ما يجب ستره . أما التعامل معهن خارج بيوتهن فهو مما تدعو إليه الضرورة فتقدر بقدرها خروجًا وكلامًا ونظرًا ، مع ارتدائها الحجاب والتصون بأسباب العفاف ، وكل ما يخالف ذلك فليس من الحياء .

وفيها إشارة إلى أنه لا ينبغى لأحد أن يطمئن إلى نفسه مهما كان صلاحه وتقواه فى التعامل مع غير المحارم ، خاصة بالخلوة ، فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد حَدَّ التحوط والاحتراز والاحتراس فى تعامل الصحابة وهم أتقى الخلق وأنقاهم ، مع أمهات المؤمنين ، وهن أعف نساء الدنيا وأطهرهن قلوبًا ، فقال : ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ فما بال غيرهم مع غيرهن ، فالتحوُّط فى معاملة غير المحارم أطهر للقلب ، وأزكى للنفس ، وأحصن للطرْف والفرْج معًا ، ومخالفة هذا ليس من الحياء .

وفيها تعظيم شأن نبينا ﷺ ، وإيجاب حرمته فى قبره كما كانت فى حياته ، إذ جعل أزواجه محرمات على غيره من بعده ، مما يدل على بقائهن فى عصمته ، إذ ليس عليهن - على الصحيح - عدة ، فالعصمة ممتدة ، وهذا لا يكون إلا للأحياء من غيره مما يشير أيضا إلى حياته فى قبره ﷺ حياة برزخية تختلف عمًّا لعموم البشر .

وبالجملة فإنه لا ينبغى لأحد أن يستحيى من الحق إبلاغًا أو تعليمًا أو سؤالاً أو

---

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ٥٢٢ ، والضَّيفَن : هو الذي يتبع الضيف أو يأتى معه أى : متطفلاً (لسان العرب . مادة : ضيف ، والمعجم الوسيط . مادة : ضاف) .

مطالبة به وأمرًا . . . وسكوته ﷺ حياء فيما يتعلق بحقه الخاص به ، والذى يجوز له التسامح فيه وتحمل أذاه ـ كما فى واقعة الوليمة ـ لا يعطى دليلاً على تقرير الفعل أو الرضا به أو طلب الاتباع فيه ـ بقرينة الإيذاء ـ بقدر ما يعطى دلالات على غلبة صفاته العظيمة من الرحمة والرأفة والعفو والتسامح والرفق بأمته ، حتى تلاشت أمامها معاتبته لهم ولومه . . وذاب فى سبيلها ـ تحملا ـ كل ما آذاه به قومه . . فصلوات ربى وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله .

***

المبحث الثانى : الآيات القرآنية الواردة فى الحياء معنى :

الآية الأولى : قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[1] .

ففى هذه الآية يأمر الله عباده المؤمنين بالإنفاق عمومًا ـ فرضًا أو تطوعًا ـ من طيبات ما رزقهم ؛ مما كسبوا من أموال ، ومما أخرج لهم من باطن الأرض من زروع وثمار ومعادن . . . وينهاهم عن قصد الخبيث من ذلك بالإنفاق ، الذى لا يقبلوه لأنفسهم إلا على استحياء وترخص ومسامحة ! !

فقد أخرج الترمذى فى سننه[2] وصححه عن البراء بن عازب رضى الله عنه ، فى سبب نزول هذه الآية قال : نزلت فينا معشر الأنصار ، كنا أصحاب نخل ، فكان الرجل يأتى من نخله على قدر كثرته وقلته ، وكان الرجل يأتى بالقنو[3] والقنوين ، فيعلقه فى المسجد ، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام ، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه ، فيسقط من البسر[4] والتمر فيأكل ، وكان ناس ممن لا يرغب فى الخير ، يأتى الرجل بالقنو فيه الشِّيصُ والحَشَف[5] ، وبالقنو قد انكسر فيعلقه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا

---

(١) سورة البقرة : ٢٦٧ .

(٢) كتاب التفسير ، باب ٣ من سورة البقرة .

(٣) القنو : العذق بما فيه من الرطب ، وهو من النخل كالعنقود من العنب (لسان العرب . مادة : قنا ، والمعجم الوسيط . مادة : قنا) .

(٤) البسر : تمر النخل قبل أن يُرطب (المعجم الوسيط . مادة : بسر) .

(٥) الشِّيص : رديء التمر وفاسده (لسان العرب . مادة : شيص) ، والحشف : أردأ التمر ، وهو الذى يجف ويصلب ويتقبض قبل نضجه ، فلا يكون له نوى ولا لحاء ولا حلاوة ولا لحم (لسان العرب . مادة : حشف) .

لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ قالوا : لو أن أحدكم أهدى إليه مثل ما أعطاه ، لم يأخذه إلا على إغماض وحياء ، قال : فكنا بعد ذلك يأتى أحدنا بصالح ما عنده . وفى رواية ابن ماجه[1] بسند صحيح : لو أهدى لكم ما قبلتموه إلا على استحياء من صاحبه غيظًا أنه بعث إليكم ما لم يكن لكم فيه حاجة .

وأصل الإغماض فى اللغة : إغلاق العين بإطباق الجفن ، ويطلق مجازاً على لازمه ، فيدل على التسامح فى الأمر والتساهل فيه عن استحياء أو غيره . وفى الآية أقوال أخرى [2] .

الآية الثانية : قوله تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [3] .

فى هذه الآية يمتن الله سبحانه وتعالى على عباده بما أنعم عليهم باللباس الذى أنزله عليهم ليستر عوراتهم التى تسبب إبليس فى كشفها عن أبويهم وإلى هذا أشار بقوله : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ﴾ والخطاب فى المقام الأول للجهلة من العرب الذين كانوا يطوفون عراة بالبيت اتباعًا لأمر الشيطان الذى خدعهم حتى سلبهم ستر الله الذى أنعم به عليهم وعلى أبويهم آدم وحواء من قبل [4] ، ثم إن الخطاب قائم لكل من يتأتى منه هذا الفعل فيكشف ما أمر الله بستره أيا كان قدره .

ومعنى إنزال اللباس عليهم : خلقه لهم ورزقه إياهم . قاله الطبرى [5] ، وعزاه القرطبى لسعيد بن جبير [6] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه : كتاب الزكاة ، باب النهى أن يخرج فى الصدقة شر ماله ، وقال البوصيرى فى الزوائد : « إسناده صحيح ».

(٢) تفسير القرطبى ٣ / ٣٢٦ ـ ٣٢٨ ، ولسان العرب . مادة : غمض .

(٣) سورة الأعراف : ٢٦ .

(٤) تفسير الطبرى ٥ / ٣٤٦٩ .

(٥) تفسير الطبرى : الموضع السابق .

(٦) تفسير القرطبى ٧ / ١٧٨ .

وقال أبو مسلم : كل ما أعطاه الله إلى عبده فقد أنزله عليه ، من غير نظر إلى نقله حقيقة من علو إلى أسفل والمقصود منه التعظيم[1] ، كقوله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [2] وقيل : يعنى به إنزال أسبابه من السماء وهو المطر الذى ينبت القطن والكتان ، وتحيا به الحيوانات التى يكون منها الصوف والشعر والوبر والحرير [3] ، وقيل : يعنى ألهمناكم كيفية صنعه [4] ، وقيل : قضيناه لكم [5] ، وقيل : أنزل شيئا من اللباس مع آدم وحواء ليكون مثالاً لغيره [6] ، وكل هذه المعانى سائغة ومحتملة وليس بينها تعارض .

وفى قوله تعالى : ﴿وَرِيشًا﴾ أربعة تأويلات [7] :

الأول : المعاش ، وهو مروى عن معبد الجهنى .

والثانى : المال ، وهو مروى عن ابن عباس وعروة بن الزبير ومجاهد والسدى والضحاك .

والثالث : الجمال والزينة ، وهو مروى عن ابن زيد .

والرابع : اللباس والعيش والنعيم ، وهو مروى عن ابن عباس .

قلت : وقول ابن عباس هذا هو الأليق بسياق الآية ، وعليه أكثر أهل اللغة [8] . والمقصود به اللباس الفاخر الذى يتزين به الإنسان ويتجمل .

---

(١) التفسير الوسيط ١ / ١٤٠١ .

(٢) سورة الحديد : ٢٥ .

(٣) قاله القرطبى (تفسير القرطبى ٧ / ١٧٨) ، والصاوى (حاشية الصاوى على الجلالين ٢ / ٦١) .

(٤) تفسير القرطبى : الموضع السابق .

(٥) التفسير الوسيط : الموضع السابق .

(٦) تفسير القرطبى : الموضع السابق .

(٧) تفسير الطبرى ٥ / ٣٤٧١ ، ٣٤٧٢ ، وتفسير الماوردى (النكت والعيون) ٢ / ٢٠ .

(٨) تفسير القرطبى ٧ / ١٧٨ .

فاللباس لستر العورة ، وهو داخلى باطن ، والريش للزينة والجمال وهو خارجى ظاهر ، قال الإمام الصاوى : « وعبر عنه بالريش لأن الريش زينة الطائر » (١) . ويؤخذ من هذا أن لباس الزينة مشروع بالمشروع منه مع صحة القصد وإخلاص النية .

ثم قال تعالى : ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ .

وقد ورد فى معنى : ﴿لِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ عدة أقوال للمفسرين (٢) ، من أحسنها وأقربها : الإيمان(٣) ، والحياء(٤) ، والعمل الصالح(٥) ، والسمت الحسن فى الوجه (٦) ، وخشية الله(٧) ، وكلها متقاربة (٨) ، وغيرها بعيد(٩) .

قال الإمام الطبرى : « وأولى الأقوال بالصحة فى تأويل قوله تعالى : ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ استشعار النفوس تقوى الله فى الانتهاء عما نهى الله عنه من معاصيه والعمل بما أمر به من طاعته ، وذلك يجمع الإيمان به والعمل الصالح والحياء وخشية الله والسمت الحسن ؛ لأن من اتقى الله كان به مؤمنا وبما أمر به عاملاً ومنه خائفا وله مراقبا ، ومن أن يرى عند ما يكره من عباده مستحييًا ، ومن كان كذلك ظهرت

---

(١) حاشية الصاوى على الجلالين ٢ / ٦١ .

(٢) تفسير الطبرى ٥ / ٣٤٧٣ ، ٣٤٧٤ .

(٣) وهو مروى عن قتادة والسدى وابن جريج .

(٤) وهو مروى عن معبد الجهنى .

(٥) وهو مروى عن ابن عباس .

(٦) وهو مروى عن ابن عباس أيضا وعثمان بن عفان .

(٧) وهو مروى عن عروة بن الزبير .

(٨) تفسير ابن كثير ٢ / ٢١٢ .

(٩) كقول ابن زيد بأنه ستر العورة ، قال القرطبى : «وهذا فيه تكرار إذ قال أولاً : ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ وكقول بعضهم : هو لبس الخشن من الثياب قلت : ولا يخفى ضعفه وبعده » . (تفسير القرطبى ٧ / ١٧٩) .

آثار الخير فيه ، فحسن سمته وهديه ورؤيت عليه بهجة الإيمان ونوره »[1] .

قلت : وخلق الحياء جامع لذلك كله . .

ومعنى الآية : يا بنى آدم قد خلقنا لكم بتدبيرنا وأسبابنا لباسًا يستر عوراتكم ، وآخر فاخرًا تتجملون به فيما بينكم ، ولكن لباس التقوى الناشئ عنها أو الناشئة عنه من الإيمان والحياء والعمل الصالح والخشية خير لكم لبقائه معكم وستره لمعايبكم فى الدنيا ، ووقايته لكم من النار فى الآخرة ، فإضافة اللباس إلى التقوى على سبيل الاستعارة ، لأنها تستر صاحبها وتقيه النار كما يستر اللباس صاحبه ويقية من الحر والبرد ﴿ **ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ** ﴾ أى : الدالة على فضله ورحمته بخلقه ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴾ أى : يعرفون نعمه ويتعظون فيرعوون عن القبائح .

وفى الآية تنبيه وإرشاد إلى العبور والترقى من المعانى الظاهرة إلى المعانى الباطنة . . ومن الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية ، كما يفهم من طهارة الوضوء والثياب عند القيام إلى الصلاة ، طهارة القلب من الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة ، وكما يفهم من خضوع الجوارح فى الصلاة خضوع القلب للرب ، وهكذا ، فمهما بالغ الإنسان فى طهارة الظاهر دون الباطن ، وفى خضوع الجوارح دون القلب ، فلن يصل إلى لب عبادته وآثارها من أنوار وأسرار . . ومقامه مقام الواصل إلى أدنى القشر دون اللباب فضلا عن لب اللباب ، ومهما بالغ الإنسان فى ستر عورته باللباس ، وتزيين ظاهره بفاخره دون أن يزين باطنه بالتقوى والحياء . . فهو كالهباء فى الهواء .

الآية الثالثة : قوله تعالى : ﴿ **أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾[2] .

---

(١) تفسير الطبرى ٥ / ٣٤٧٥ .

(٢) سورة هود : ٥ .

فقد روى البخارى فى صحيحه [1] فى سبب نزول الآية عن ابن عباس قال : كان الرجل يجامع امرأته فيستحيى أو يتخلى فيستحيى ، فنزلت : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ . وفى رواية له أيضا عنه قال : أناس كانوا يستخفون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم .

وهذا السبب وإن كان واردًا فى صحيح البخارى إلا أنه ـ كما قال ابن عاشور ـ لا يناسب موقع الآية ولا اتساق الضمير ، فلعل مراد ابن عباس أن الآية تنطبق على صنيع هؤلاء وليس فعلهم هو سبب نزولها .

وقد روى ابن جرير الطبرى عن عبد الله بن شداد أنها نزلت فى المنافقين كان أحدهم إذا مر بالنبى ﷺ ثنى صدره وتغشى بثوبه كى لا يراه النبى ﷺ . وروى عن مجاهد أنهم إنما كانوا يفعلون ذلك شكًا وامتراء فى الحق ، ليستخفوا من الله إن استطاعوا ، وعن قتادة : لكيلا يسمعوا كتاب الله [2] .

قلت : وهذا بعيد إذ السورة مكية ولم يكن النفاق موجودا بمكة بل ظهر فى المدينة ، كما أن هذا لا يتناسب مع السياق الذى وردت فيه الآية من وعظ المشركين وإنذارهم ودعوتهم إلى الله ، فالظاهر أنها نزلت فى المشركين إذ كانوا يثنون صدورهم عن الحق ويطوونها على الكفر ، وعداوة النبى ﷺ ، ويولون ظهورهم له ، وقد أحنوا صدورهم مبالغة فى الإعراض وعدم السماع له ، ويستخفون ببعض أعمالهم وأقوالهم معتقدين أن أمرهم يخفى على الله سبحانه وتعالى جهلاً منهم بإحاطته تعالى بظواهرهم وبواطنهم ، فرد الله عليهم بأنهم مهما بالغوا فى ستر حالهم فإنه يعلمه هذا على الكناية أو على الحقيقة ، فإنهم مهما تخفوا فى ثيابهم

---

(١) كتاب التفسير ـ سورة هود ـ : باب ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ .

(٢) تفسير الطبرى ٦ / ٤٢٨٧ ـ ٤٢٨٩ .

وتغطوا بها حين يأوون إلى فراشهم فى ظلمة الليل وقد أحنوا صدورهم وذلك أخفى ما يكون الإنسان ، فإن الله يعلم ما تنطوى عليه من النيات والسرائر ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بل السر عنده علانية ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾أى : بأسرارها وحقائق ما انطوت عليه ، فكيف يستخفون بعمل منه أو كيف يخفى عليه شىء ؟!!

ويؤيد هذا أيضا ما رواه الواحدى فى أسباب النزول(١) ، والقرطبى فى تفسيره (٢) وغيرهما أن الآية نزلت فى الأخنس بن شريق ، وكان رجلا حلو الكلام حلو المنظر يلقى رسول الله ﷺ بما يحب ويطوى بقلبه ما يكره .

الآية الرابعة : قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا (٣) لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾(٤) .

فقد روى عن الإمام على رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى : ﴿لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ أن امرأة العزيز لما راودت يوسف ـ عليه السلام ـ قامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت فى زاوية البيت فسترته بثوب ، فقال لها : ما تصنعين ؟ قال : أستحيى من إلهى هذا أن يرانى فى هذه الصورة ، فقال يوسف : أنا أولى أن أستحيى من الله .

---

(١) أسباب نزول القرآن ، للواحدى ص ٢٧١ .

(٢) تفسير القرطبى ٩ / ٨ ، ٩ .

(٣) فُسِّرَ هَمُّ يوسف هنا بتفسيرات تتنافى مع عصمة الأنبياء ومكانتهم أو حفظهم قبل نبوتهم من أنه هَمّ بمواقعتها وعزم عليه حتى حلّ سراويله وجلس بين رجليها مجلس الرجل من المرأة ، وهو تفسير غير صحيح لا يتناسب مع قوله قبلها : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ ولا قول امرأة العزيز بعدها : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ مع ما في الاستعصام من دلالات شدة عفته ، وقوة امتناعه منها ويقظته وأحسن ما قيل فى ذلك : أنها همت به بالفعل تجذبه إلى نفسها ، وهَمَّ بها بالدفع يدفعها عن نفسه فهمُّها كان شهوة ورغبة ، وهمُّه كان عفة ورهبة ، والله أعلم .

(٤) سورة يوسف : ٢٤ .

قال الإمام القرطبى : « هذا أحسن ما قيل فيه ، لأن فيه إقامة الدليل »[(١)]، وفى الآية أقوال أخرى منها : أن برهان ربه : تذكر عهد الله وميثاقه ، أو أنه رأى صورة يعقوب يقول له : يا يوسف أنت مكتوب فى ديوان الأنبياء وتعمل عمل السفهاء ، أو رأى صورته يتوعده ، أو أنه نودى بالنهى أو رأى كتابًا على الحائط أو بدت له كف مكتوب عليها ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾[(٢)] كما ذكره ابن عباس أو غير ذلك[(٣)].

والضابط فى كل هذا أن البرهان الذى رآه يوسف آية من آيات الله قَوِى وامتنع بها ، والتى قد يكون منها حياء المرأة من الصنم .

الآية الخامسة : قوله تعالى : ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[(٤)].

الكلام فى مريم ـ عليها السلام ـ من أنها لما حملت بعيسى ـ عليه السلام ـ من غير أب قصدت مكانا بعيدا نائيا عن قومها خوفًا من تعييرهم لها وهو بيت لحم على المشهور[(٥)] ، وفى هذا المكان ألجأها الطلق واضطرها إلى جذع نخلة لتستند إليه وتتعلق به ، مستعينة به على قوة الاحتمال مستترة به عن أعين الناس ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أى : لم أخلق ولم أك شيئا ، قاله ابن عباس[(٦)]، وإنما دفعها إلى هذا القول الاستحياء من الناس ، قاله السدى[(٧)]، أى : حياء من كلامهم فيما يمس شرفها وطهارتها .

الآية السادسة : قوله تعالى : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ

---

(١) تفسير القرطبى ٩ / ١٧٤ .

(٢) سورة المطففين : ١٠ .

(٣) تفسير الماوردى ٢ / ٢٦٠ ، والقرطبى : الموضع السابق .

(٤) سورة مريم ٢٢ ، ٢٣ .

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ١٢٠ .

(٦) ، (٧) تفسير الطبرى ٧ / ٥٤٧٥ ، ٥٤٧٦ .

عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾(١) .

فقد نزلت هذه الآية فى زيد بن حارثة رضى الله عنه مولى رسول الله وحبه ، وابنه بالتبنى وطلاقه للسيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها بنت عمة رسول الله ﷺ ، ثم زواجه ﷺ بها إبطالاً لعادة العرب فى الجاهلية من إلحاق الابن المتبنَّى بالعصبى حيث تجرى عليه حقوقه فى الميراث ، وحرمة زوجته على من تبناه .

وكان النبى ﷺ قد أعتق زيدا وتبناه بعدما اشترته السيدة خديجة رضى الله عنها ووهبته له ، حيث كان التبنى سائداً ، فكان يدعى زيد بن محمد إلى أن أبطل الله التبنى وحرمه بقوله تعالى : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (٢) فعاد اسمه زيد بن حارثة .

وقد زوجه النبى ﷺ بالسيدة زينب على كره وامتناع منها ومن أخيها عبد الله لنسبها من قريش . . وزيد مولى فلما نزل قول الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾(٣) نزلا على حكم الله ورسوله لكنها لم تستطع أن تذيب ما بينهما من فوارق من نفسها ، فلما وجد زيد منها تعاظما وتفاخرا وتعاليا بحسبها ونسبها . . شكى ذلك للنبى ﷺ وأعلمه أنه يريد طلاقها فقال له ﷺ : ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ أى : فى قولك ، مع أن الله سبحانه وتعالى كان قد أوحى إليه أن زيدا

---

(١) سورة الأحزاب : ٣٧ .

(٢) سورة الأحزاب : ٥ .

(٣) سورة الأحزاب : ٣٦ .

سيطلقها ، وأنه سيتزوجها بتزويجها إياه . . فهذا هو ما أخفاه النبى ﷺ فى نفسه ، ولم يأمره بطلاقها من أجله . . ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ أى : خشية من قالة الناس فيه بأنه تزوج زينب بعد مولاه زيد أو تزوج زوجة ابنه بالتبنى ، وقد أمره بطلاقها فعاتبه الله على أنه خشى الناس فيما أباحه له ، وأعلمه أن الله أحق بالخشية فى كل حال(١) .

إذن فالقصة كلها كانت لعلة هذا التشريع وأن يكون النبى ﷺ هو أول من يبطل عادة حرمة زوجة الابن المتبنى ، ومن المفسرين من ذهب إلى أن معنى قوله تعالى : ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ أى : تستحييهم والله أحق أن تستحيى منه(٢) .

وقد رجح ابن عجيبة تفسير الخشية بالحياء هنا لتنزهه ﷺ من مذمة خوف الخلق ، وقال فى قوله تعالى : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ : « أى : تستحيى من الناس أن يقولوا نكح امرأة ابنه ، وكان عليه الصلاة والسلام أشد حياء من العذراء فى خدرها ، والحياء ممدوح عند الخاص والعام ، وأما قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ فتنبيه على أن الحياء فى بعض المواضع تركه أولى ، فهو ترقية له وتربية لوقت آخر » (٣) .

* * *

---

(١) هذا هو أحسن ما قيل فى تأويل هذه الآية كما ذكر الإمام القرطبى وقال : « وهو الذى عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء والراسخين» (تفسير القرطبى ١٤ / ١٨٥ ، ١٨٦) .
أما ما ذكر من أن النبى ﷺ أتى زيدًا يطلبه فأبصر زينب قائمة وكانت بيضاء جميلة جسيمة فهويها أو وقع إعجابها فى قلبه ﷺ ، وما دار فى فلك هذا الكلام فكله من سخف وهراء الإسرائيليات التى لا تجوز روايتها ، والتى ردها المحققون من علمائنا وأثبتوا زيفها وفسادها ـ ولله الحمد ـ وإن كانت منسوبة إلى السلف ومروية فى كتبهم كتفسير الطبرى ٨ / ٦٦٦٧ ، وتفسير القرطبى ١٤ / ١٨٥ وغيرهما . وقد اعتذر الإمام ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٥٠٧ عن إيرادها لعدم صحتها ، ويراجع فى الرد على ذلك : كتاب الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير ، للدكتور محمد أبو شهبة ص ٣٢٣ ـ ٣٢٨ .
(٢) تفسير القرطبى : الموضع السابق .
(٣) تفسير ابن عجيبة ٤ / ٤٣٦ .

المبحث الثالث : الحياء فى السنة النبوية:

وقد عنيت السنة النبوية بخلق الحياء عناية كبيرة ظهرت فيما نقل من مروياتها الكثيرة عنه ، والتى يمكن أن نجملها فى النقاط التالية :

أولاً: الحياء والإيمان قرناء:

فقد روى الحاكم وصححه على شرط الشيخين عن ابن عمر ، رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «**الحياء والإيمان قُرنا جميعاً فإذا رُفِعَ أحدُهما رُفع الآخر**»(١) .

وقرن الشيء إلى الشيء أى وصلُه به ، وشدُّه إليه . ومعناه : أنهما مجموعان متصلان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر . فلا حياء (شرعى) (٢) من غير إيمان ، ولا إيمان من غير حياء ، وهذا يظهر بوضوح منزلة الحياء من الإيمان ، وقد روى فى الحديث : « **لا إيمان لمن لا حياء له** » (٣) .

قال الراغب الأصفهانى : « فإن قيل : كيف قال النبى ﷺ ذلك ؟ قيل : الحياء أول ما يظهر فى الإنسان من أمارة العقل ، والإيمان آخر مرتبة العقل ، ومحال حصول آخر مرتبة العقل لمن لم يحصل له المرتبة الأولى ، فبالواجب إذاً كان من لا حياء له لا إيمان له »(٤) .

ثانيًا: الحياء شعبة من شعب الإيمان:

ففى الحديث المتفق عليه من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «**الإيمان**

---

(١) سبق تخريجه ص ١٢ .

(٢) قيدته بذلك لأن الحياء يكون أحيانًا من الطبع دون النظر إلى معانى الشرع ، ويكون أحيانًا مخالفًا للشرع كما سيأتى ، وليس هذا مقصودنا هنا .

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا فى « مكارم الأخلاق » : باب ذكر الحياء وما جاء فيه ص ٨٧ ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال العجلونى : « فى إسناده من لم يعرف » (كشف الخفاء ٢ / ٣٧٥) .

(٤) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٩٠ .

بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» (١).

والشعبة هي القطعة من الشيء.

قال الإمام النووي في (شرح صحيح مسلم): «قال القاضي عياض وغيره من الشراح: إنما جعل الحياء من الإيمان وإن كان غريزة لأنه قد يكون تخلقًا واكتسابًا كسائر أعمال البر، وقد يكون غريزة، ولكن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى اكتساب ونية وعلم، فهو من الإيمان بهذا، ولكونه باعثاً على أفعال البر ومانعًا من المعاصي» (٢).

وقال ابن الأثير: «وإنما جعله بعضه ـ أي: جعل الحياء بعض الإيمان ـ، لأن الإيمان ينقسم إلى ائتمار بما أمر الله به، وانتهاء عما نهى الله عنه، فإذا حصل الانتهاء بالحياء كان بعض الإيمان» (٣).

ثالثًا: الحياء خلق الإسلام:

فقد روى الإمام مالك عن يزيد بن طلحة بن رُكانة، وابن ماجه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن لكل دين خلقًا، وخلق الإسلام الحياء»** (٤). والمعنى: أن خلق الحياء من أبرز ما يتميز به الإسلام من أخلاق وفضائل.

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١ / ٢٨١.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ١ / ٤٢٤.

(٤) أخرجه ابن ماجه: كتاب الزهد، باب الحياء، والطبراني في «الأوسط» (٢ / ٢١١) عن أنس بن مالك، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠ / ١٥٣)، ومالك في «الموطأ»: كتاب الجامع (حسن الخلق)، باب ما جاء في الحياء، عن يزيد بن طلحة بن ركانة، وحسنه الألباني (صحيح الجامع برقم ٢١٤٩).

رابعًا : الحياء هو الدين كله :

فعن قرَّة بن إياس رضى الله عنه قال : كنا عند النبى ﷺ فذكر عنده الحياء ، فقالوا : يا رسول الله ، الحياء من الدين ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **بل هو الدين كله** » (١) .

قلت : لأن فى الحياء كمال الدين ؛ إذ يمنع مما يمنع منه الدين ، قال العلامة المناوى : « ولأن من استحيا من الخلق قل شره ، وكثر خيره . . . وأشفق أن يرى أحد فى دينه خللاً ، أو فى عمله زللاً ، فمن ثَمَّ كان فيه كمال الدين »(٢) .

خامساً : الحياء من سنن المرسلين :

فقد دلت الأحاديث على أن الحياء سنة من سنن المرسلين ، فجميع الأنبياء تخلقوا وتحققوا به ، وحثوا أتباعهم عليه ، وأوصوهم به فهو من سننهم .

فمن ذلك : ما رواه الإمام أحمد والترمذى وحسنه من حديث أبى أيوب قال : قال رسول الله ﷺ : «**أربع من سنن المرسلين : الحياء** (٣) والتعطر ، والسواك ، والنكاح» (٤) .

---

(١) أخرجه البيهقى فى « الكبرى » (١٠ / ٣٢٨) ، وفى « الشعب » (١٠ / ١٥١) ، والطبرانى فى « الكبير » (١٩ / ٢٩ ، ٣٠) ، وأبو نعيم فى « الحلية » (٣ / ١٢٥) ، وقال الهيثمى فى « مجمع الزوائد» (٨ / ٢٩) : « فيه عبد الحميد بن سوار وهو ضعيف » ، وضعفه المنذرى فى « الترغيب والترهيب » (٣ / ٣٩٩) ، والألبانى فى (ضعيف الجامع برقم ٢٨٠٩) ، وصححه فى (صحيح الترغيب برقم ٢٦٣٠) .

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤ / ٤٢٠ .

(٣) جاء فى بعض الروايات (الحناء) بدل (الحياء) . قال أبو بكر بن العربى فى «عارضة الأحوذى»(١ / ٢٣٩) : «والمشهور فى الرواية (الحياء) بالياء المعجمة باثنين من تحتها ، والحاء المهملة . . ورواية عباد (الحناء) أشبه بما قارنها من التعطر والسواك» .

(٤) أخرجه الترمذى فى « السنن » : أبواب النكاح ، باب ما جاء فى فضل التزويج والحث عليه ، وقال : « حسن غريب » ، والطبرانى فى « الكبير» (٤ / ١٨٤) ، قال الإمام النووى : « فى إسناده الحجاج بن أرطاة ضعيف عند الجمهور ، وأبو الشمال مجهول » (المجموع ١ / ٢٧٤) .

ومن ذلك : ما رواه الشيخان عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن موسى ـ عليه السلام ـ كان رجلاً حيياً ستيراً لا يُرى من جلده شيء استحياء منه** ... » الحديث[1] .

ومن ذلك حديث الشفاعة الطويل الذى رواه الشيخان عن أنس رضى الله عنه حين يجمع الله الناس يوم القيامة فيستشفعون بالأنبياء حتى يريحهم الله من مكانهم .. فيقول كل نبى : لستُ هُناكم أى : لست أهلاً لذلك ، ويذكر خطيئته التى أصاب فيستحيى ربه منها ، حتى يصل الأمر إلى رسول الله محمد ﷺ فيَشْفَع ويُشَفَّع[2] . فالحياء ميراث جميع الأنبياء ، وسيأتى مزيد بيان لذلك فى النقطة الثامنة .

سادساً: الحياء كله خير ولا يأتى إلا بخير:

ففى الحديث المتفق عليه من حديث عمران بن حُصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**الحياء لا يأتى إلا بخير**»[3] . وفى رواية لمسلم : «**الحياء خير كله**»، أو قال : «الحياء كله خير» [4]، والمقصود بالحياء هنا : الحياء المنضبط بالأصول العامة ، والقواعد الشرعية المقررة ، أما الحياء العرفى المجازى الذى يشبه الحياء الحقيقى فى بعض صفاته ومظاهره وآثاره ، فلا ينطبق عليه هذا الحديث ، بل قد يؤدى إلى ما هو

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى : كتاب أحاديث الأنبياء ، باب بدون ترجمة ، بعد باب حديث الخضر مع موسى ـ عليهما السلام ـ واللفظ له ، وصحيح مسلم : كتاب الفضائل ، باب من فضائل موسى ﷺ .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى : كتاب التفسير ـ سورة البقرة ـ ، باب قول الله تعالى : وعلم آدم الأسماء كلها ، وكتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، ومسلم : كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى : كتاب الأدب ، باب الحياء ، ومسلم : كتاب الإيمان ، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان .

(٤) صحيح مسلم : الموضع السابق .

شر ، وسببه ومنشؤه العجز والخور ، لا الإيمان كما في الحياء الحقيقي ، وبهذا يظهر عدم التعارض بين حقيقة الحياء وكونه لا يأتي إلا بخير ، وبين بعض الأفعال التي لا تصح شرعًا وينسب الفعل والترك فيها إلى الحياء كترك حق والتقصير في واجب(١) . وسيأتي بيانه .

سابعا: الحياء ميزان الأشياء حُسنًا وقبحًا؛ فهو رمز الصلاح:

فقد روى الترمذي وحسنه وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « **ما كان الفحش في شيء إلا شانه ، وما كان الحياء في شيء إلا زانه**»(٢) . ومعنى : « شانه» قبحه وعابه وأوجد به نقصًا .

ومعنى : « زانه» زينه وجمله ، فالحياء عنصر النبل في الحياة ، ومِلاك الخير ، وزينة الرجال ، بل به يتميز صالحهم من طالحهم .

فقد روى الطبراني وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « **يا عائشة لو كان الحياء رجلاً كان رجلاً صالحاً ، ولو كان الفحش رجلاً لكان رجل سوء**» (٣) .

ثامنا: تحذير كل الشرائع السماوية من تركه ، وجعله المقياس الصحيح للأعمال ، فعلاً .. وتركًا :

فالحياء ميراث الأنبياء ، وهو من بقايا كلام النبوة الأولى التي كانت في الأمم السابقة ، من لدن آدم عليه السلام إلى أن أكدت عليه هذه الشريعة الخاتمة ، فلم ينسخ في

(١) انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ١ / ٢٨١ .

(٢) أخرجه الترمذي : أبواب البر والصلة ، باب ما جاء في الفحش والتفحش ، وقال : « حسن غريب » . وابن ماجه : كتاب الزهد ، باب الحياء ، وصححه الألباني (صحيح الجامع برقم ٥٦٥٥) .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » : باب ذكر الحياء وما جاء فيه ص ٧٩ ، والطبراني في « الأوسط » (٥ / ٧٦) ، وضعفه الألباني (ضعيف الجامع برقم ٤٨٣١) .

شريعة من الشرائع بل اتفق على فضله والتخلق به جميع الأنبياء، وتلقاه من الأمم بالاستحسان والقبول العقلاء، ولذا كان التحذير من تركه شديدًا.

فقد روى البخارى عن أبى مسعود عقبة بن عمرو الأنصارى البدرى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن مما أدرك الناسُ (١) من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحى (٢) فاصنع ما شئتَ»** (٣) (٤).

فهذه خمس كلمات فى الحياء من وصايا جميع الأنبياء.

قال الإمام النووى فى (شرح الأربعين النووية): «وعلى هذا الحديث يدور مدار الإسلام كله» (٥).

فقد تضمن الحديث الأحكام الخمسة، وذلك لأن عمل العبد إما أن يُستحيى منه

---

(١) قال ابن حجر: «والناس يجوز فيه الرفع والعائد على (ما) محذوف، ويجوز النصب، والعائد ضمير الفاعل، وأدرك بمعنى بلغ» (فتح البارى ١٠ / ٤٣٠).

(٢) تستح: بكسر الحاء ـ مضارع استحى، وتستحى: مضارع استحيا حذفت ياؤه الثانية للجازم، وقد سبق أن إثبات الياء أولى، وهى لغة أهل الحجاز.

(٣) سبق تخريجه ص ١٤.

(٤) حكى أن بعضهم سافر إلى شعبة أحد رواة الحديث، ليسمع منه وكان فى البصرة فصادفه قد انصرف من مجلسه، فسأل عن منزله فدُلَّ عليه فوجده مفتوحًا، فدخله من غير إذن، فوجد شعبة جالسًا يبول فقال له: السلام عليكم، رجل غريب قدمت من بلدة بعيدة لتحدثنى بحديث رسول الله ﷺ، فاستعظم ذلك شعبة وقال: ياهذا دخلت منزلى بغير إذنى، وتكلمنى على مثل هذا الحال؟ فقال: إنى خشيت الفوت أى: الموت، فقال: تأخر عنى حتى أصلح من شأنى، فلم يفعل، واستمر فى الإلحاح وشعبة يخاطبه وذَكَره فى يده يستبرئ، فلما أكثر قال: اكتب حدثنا منصور بن المعتمر، عن ربعى بن حراش ـ بكسر الراء والحاء وسكون الباء ـ عن أبى مسعود عن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ مما أدرك الناس من كلام النبوة: إذا لم تستحى فاصنع ما شئت»** ثم قال: والله لا أحدثك بعد هذا الحديث ولا أحدث قوما تكون فيهم (الجواهر اللؤلؤية فى شرح الأربعين النووية، للجردانى الدمياطى ص ٢٠٠).

(٥) شرح الأربعين النووية ص ٩٠.

وهو الحرام والمكروه ، وعمل ذلك مذموم، وإما أن لا يُستحيى منه وهو الواجب والمندوب والمباح، وعمل ذلك مشروع، إلا أن الحياء من فعل بعض المباح جائز سائغ ورعًا ، وهو ما يعرف بخلاف الأولى فى مرتبة الأكابر ، وذلك يختلف باختلاف الزمان والمكان والحال والإنسان . إذن فمدار جميع أحكام الإسلام على هذا الحديث .

والمعنى على هذا : إذ أردت فعل شىء فانظر فيه ، فإن كان مما لايستحيى منه فافعله ، وإن كان مما يستحيى منه فلا تفعله ، فالأمر فى قوله : «**فاصنع ما شئت**» للإباحة ، وهو مروى عن الإمام أحمد .

وقيل : إن الأمر للتهديد والوعيد الشديد ، والمعنى على ذلك : أن من لم يستحى من الله ولا يراقبه فليصنع ما يشاء من القبائح والمنكرات ، والله سيجازيه على عمله بما يستحقه ، وهو قول أبى عبيد والأكثرين .

وليس هذا القول إغراء بفعل المعاصى عند قلة الحياء ـ كما هو حال بعض الجهال ـ ، بل هو تهديد شديد لمن دفعه عدم حيائه لارتكاب القبائح على حد قوله تعالى : ﴿**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ (١) ، وهذا هو أرجح الأقوال وأظهرها لتبادره إلى الذهن من لفظ الحديث .

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : « فإن قيل : فهل من سبيل إلى حمله على المعنيين ؟ قلت : لا ، ولا على قول من يحمل المشترك على جميع معانيه ، لما بين الإباحة والتهديد من المنافاة ، ولكن اعتبار أحد المعنيين يوجب اعتبار الآخر »(٢) .

وقيل : إن الأمر معناه الخبر ، أى : من لم يستحى صنع ما شاء ، قال ابن القيم : « وعندى أن هذا الكلام صورته صورة الطلب ، ومعناه معنى الخبر ، وهو فى قوة

---

(١) سورة فصلت : ٤٠ .

(٢) الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى ص ٧٠ .

قولهم : من لا يستحى صنع ما يشتهى ، فليس بإذن ، ولا هو مجرد تهديد ، وإنما هو فى معنى الخبر . والمعنى : أن الرادع عن القبيح إنما هو الحياء فمن لم يستح فإنه يصنع ما شاء .

وإخراج هذا المعنى فى صيغة الطلب لنكتة بديعة جداً وهى أن للإنسان آمرين وزاجرين : آمر وزاجر من جهة الحياء ، فإذا أطاعه امتنع من فعل كل ما يشتهى ، وله آمر وزاجر من جهة الهوى والطبيعة ، فمن لم يطع آمر الحياء وزاجره أطاع آمر الهوى والشهوة ولابد . . فإخراج الكلام فى قالب الطلب يتضمن هذا المعنى دون أن يقال : من لا يستحى صنع ما يشتهى» (١) .

وقال الخطابى : « الحكمة فى التعبير بلفظ الأمر دون الخبر فى الحديث أن الذى يكف الإنسان عن مواقعة الشر هو الحياء ، فإذا تركه صار كالمأمور طبعاً بارتكاب كل شىء» (٢) .

تاسعاً: ترك أهل الحياء الحق على حالهم، وإقرارهم وتشجيعهم عليه وعدم وعظهم فيه :

فقد روى الشيخان عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ مرعلى رجل من الأنصار وهو يعظ ـ وفى رواية : يعاتب ـ أخاه فى الحياء (أى : ينهاه عنه، ويقبحه له، أو يزجره عن كثرته، ويشجعه على تركه) فقال رسول الله ﷺ : **«دَعْهُ فإن الحياء من الإيمان»** (٣) .

أى : اتركه على حيائه ، فإن الحياء يمنع مما يمنع منه الإيمان .

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ١ / ٤٢٣ .

(٢) فتح البارى ١٠ / ٤٣٠ .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى : كتاب الإيمان ، باب الحياء ، ومسلم : كتاب الإيمان ، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها ، وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان .

قال ابن حجر : « وحاصله أن إطلاق كونه من الإيمان مجاز ، والظاهر أن الناهى ما كان يعرف أن الحياء من مكملات الإيمان فلهذا وقع التأكيد ، وقد يكون التأكيد من جهة أن القضية فى نفسها مما يهتم به وإن لم يكن هناك منكر »(١) .

والظاهر أيضًا أن حياء الرجل هنا كان من أمر من الأمور التى يستحب فيها الحياء، لا من أمر يكره فيه الحياء أو يحرم فهذا حياء مذموم، كما سيأتى بيانه، وعليه فالحياء الذى لا نصيحة فيه بالترك هو الحياء المشروع المحمود، أما الحياء المذموم كالحياء من طلب الحق حتى يضيع، أو السؤال عمّا يجهله الإنسان من أمور دينه أو غير ذلك، فليس مقصودًا هنا . وينبغى التفرقة بينهما؛ فأكثر الناس فى هذا الزمان لايعرفون هذه التفرقة، فتراهم ينصح بعضهم بعضًا بترك الحياء فيما يجب منه الحياء، فيقول أحدهما للآخر عند إحجامه عن مخالفة دينه أو ترك قحة وبذاءة أخلاقية : لمَ هذا الكسوف أو الخجل ؟! بينما لا ينصحه بذلك إذا كان الخجل يرجع إلى عاهات النفس وضعفها لا إلى الحياء الحقيقى .

عاشراً : نزع الحياء من العبد عنوان هلاكه:

فالعبد إذا فقد حياءه، لم يبق لديه وازع يمنعه من اقتراف الخطايا وارتكاب الدنايا حتى يصبح جريئًا على الله، جريئًا على الناس، يتدرج من سيء إلى أسوأ وينحط من رذيلة إلى أرذل حتى يصبح ملعونًا قد نزعت منه ربقة (٢) الإسلام وهو لا يشعر .

وهذه نهاية مخزية لبداية مؤسفة لمراحل هذا السقوط والهلاك يستهين بها البعض وهى (**فقد الحياء وقلته**) ؛ ولذا حذر الرسول ﷺ منه، فقد روى ابن ماجه فى سننه عن

---

(١) فتح البارى ١ / ٦٢ .

(٢) الربقة ـ بكسر الراء وفتحها ـ : واحدة الربق ـ بالكسر ـ، وهى عروة فى حبل تجعل فى عنق البهيمة أو فى يدها تمسكها وتستعار لغيره ، والمعنى هنا : خلع قيد الإسلام من عنقه وفارق الجماعة(لسان العرب . مادة : ربق) .

ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «**إن الله عز وجل إذا أراد أن يهلك عبداً نزع منه الحياء، فإذا نَزع منه الحياء لم تَلْقَهُ إلا مقيتاً مُمقَّتا، فإذا لم تَلْقَهُ إلا مقيتاً مُمَقَّتا نزعت منه الأمانة، فإذا نزعت منه الأمانة لم تَلْقه إلا خائناً مُخَوَّنا، فإذا لم تلقه إلا خائناً مُخوَّنا نزعت منه الرحمة، فإذا نُزِعت منه الرحمة لم تَلْقَه إلا رجيماً مُلَعَّنا، فإذا لم تَلْقَه إلا رجيماً مُلَعنا، نزعت منه رِبْقَة الإسلام**» (١).

قال الشيخ محمد الغزالى فى خلق المسلم: «وهذا ترتيب دقيق فى وصفه لأمراض النفوس، وتتبعه لأطوارها، وكيف تُسْلِم كل مرحلة خبيثة إلى أخرى أشد نكرًا. فإن الرجل إذا مزق الحجاب عن وجهه، ولم يتهيب على عمله حسابًا، ولم يخش فى سلوكه لومة لائم، مدّ يد الأذى للناس وطغى على كل من يقع فى سلطانه... لا يرده عن الآثام حياء!! فإذا صار الشخص بهذه المثابة لم يؤتمن على شئ قط، إذ كيف يؤتمن على أموال لا يخجل من أكلها أو على أعراض لا يستحيى من فضحها أو على موعد لا يهمه أن يخلفه أو على واجب لا يبالى أن يفرط فيه، أو على بضاعة لا يتنزه عن الغش فيها، فإذا فقد الشخص حياءه وفقد أمانته أصبح وحشًا كاسرًا ينطلق معربدًا وراء شهواته ويدوس فى سبيلها أزكى العواطف.. ويوم يبلغ امرؤ هذا الحضيض فقد أفلت من قيود الدين وانخلع من ربقة الإسلام» (٢).

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الفتن، باب ذهاب الأمانة، قال البوصيرى فى الزوائد: «فى إسناده سعيد ابن سنان، وهو ضعيف مختلف فى اسمه»، وضعفه أيضًا الحافظ ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم والحكم ص ٢٤٣، وقال الألبانى: «موضوع» (ضعيف الجامع برقم ١٥٤٣)، والحديث يروى موقوفًا على سلمان الفارسى (جامع العلوم والحكم: الموضع السابق). وقال الشيخ محمد فؤاد عبد الباقى فى تعليقه على الحديث: «(مقيتًا ممقتا) المقيت: فعيل بمعنى مفعول، والمقت أشد البغض، والممقَّت اسم مفعول من مَقَّته، والجمع بينهما للتأكيد، أى: تراه مبغضا عند الطباع أو ظاهرًا عليه أثر البغض من الله تعالى.
(مخونًا) أى: منسوبًا بين الناس إلى الخيانة مشهوراً بينهم بها.
(رجيمًا) أى: مرجومًا مطرودًا (ملعنًا) أى: منسوبًا على لسان الناس باللعن (ربقة الإسلام) قيد الإسلام».

(٢) خلق المسلم ص ١٥٩، ١٦٠.

الحادية عشرة : الحياء طريق الجنة، والفحش والبذاء طريق النار :

فقد روى الإمام أحمد والترمذى وصححه عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**الحياء من الإيمان ، والإيمان فى الجنة ،والبذاء من الجفاء ، والجفاء فى النار**»[1].

والبذاء : هو الفحش فى القول ـ كما سبق ـ والجفاء : غلظ الطبع ، وترك الصلة والبر .

وقد جعل رسول الله ﷺ البذاء مقابل الحياء ، وأول درجة من درجات الاتجاه المضاد له ، المؤدى بصاحبه إلى النار مع أن البذاء يكون فى اللسان ويستهين به كثير من الناس ، وفى هذا إرشاد إلى شدة احتياط العبد فى البعد عن هذا السبيل كما لا يخفى .

الثانية عشرة : عدم الحياء من علامات أهل النفاق :

فقد روى الترمذى وحسنه عن أبى أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**الحياء والعِىُّ شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق**»[2]. والعى : هو ترك القول أو الفعل بالعجز عنهما ، وهذا أمر لا يستحق الثناء والمدح .

فالمقصود به هنا : قلة الكلام أو كثرة الصمت ، وترك مالا يعنى .

والبذاء : هو الفحش فيه ، ويعبر به عن الفحش فى السلوك أيضًا .

---

(١) أخرجه الترمذى : أبواب البر والصلة ، باب ما جاء فى الحياء ، وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه : كتاب الزهد ، باب الحياء ، وأحمد فى « المسند » (٩ / ٤٩٢) ، وقال الهيثمى : « رجاله رجال الصحيح » (مجمع الزوائد ١ / ٩٦) .

(٢) أخرجه الترمذى : أبواب البر والصلة ، باب ما جاء فى العى ، وقال : « حسن غريب » ، وأحمد فى « المسند » (١٦ / ٢٦٨) ، وقال ابن مفلح : « رواته كلهم ثقات ، وحسان لم يسمع من أبى أمامة » (الآداب الشرعية ٢ / ٩١) ، وصححه الألبانى (صحيح الجامع برقم ٣٢٠١) .

والبيان : كثرة الكلام مع التعمق فى النطق والتفاصح فيه .

والمقصود به هنا : كثرة الكلام المذموم الذى لا يرضى الله ورسوله فليس كل البيان مذمومًا ، والقصد : أنه ﷺ جعل البذاء الذى هو ضد الحياء شعبة من النفاق وعلامة على أهله ، تحذيرًا من شره وما يؤدى إليه ، وفيه من الترغيب فى خلق الحياء وبيان فضله ، والترهيب من الفحش والبذاء ، وبيان شره وضرره ما لا يخفى .

الثالثة عشرة : الحياء وصية رسول الله ﷺ :

فقد روى الإمام أحمد والبيهقى وغيرهما عن سعيد بن زيد الأنصارى رضى الله عنه قال : إن رجلاً قال : يا رسول الله ، أوصنى ، قال : « **أوصيك أن تستحيى من الله عز وجل كما تستحيى رجلاً من صالحى قومك** » (١) .

الرابعة عشرة : الله يستحيى ممن يستحيى منه :

ففى الحديث المتفق عليه عن أبى واقد الليْثى أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس فى المسجد والناس معه ، إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ ، وذهب واحد ، قال : فوقفا على رسول الله ﷺ ، فأما أحدهما فرأى فرجة فى الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خلفهم ، وأما الثالث فأدبر ذاهبا ؛ فلما فرغ رسول الله ﷺ قال : « **ألا أخبركم عن النفر الثلاثة : أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله ، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض ؛ فأعرض الله عنه** » (٢) .

قال الإمام النووى : قوله ﷺ : « **وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه** » أى : ترك

---

(١) رواه الإمام أحمد فى « الزهد » ص ٤٦ ، والبيهقى فى « الشعب » (٢ / ٤٦٢) ، وصححه الألبانى (السلسلة الصحيحة برقم ٧٤١) .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى : كتاب العلم ، باب من قعد حيث ينتهى به المجلس . . . ، ومسلم : كتاب السلام ، باب من أتى مجلسًا فوجد فرجة فجلس فيها وإلا وراءهم .

المزاحمة والتخطى حياء من الله تعالى ، ومن النبى ﷺ والحاضرين ، أو استحياء منهم أن يعرض ذاهبًا ، كما فعل الثالث (١) .

وقال ابن حجر : « وقد بين أنس فى روايته سبب استحياء هذا الثانى فلفظه عند الحاكم(٢) : « ومضى الثانى قليلاً ثم جاء فجلس » ، فالمعنى أنه استحيا من الذهاب عن المجلس كما فعل رفيقه الثالث ، وقوله : (فاستحيا الله منه) معناه : رحمه ولم يعاقبه» (٣) .

قلت : وهذا بفضل حيائه .

الخامسة عشرة : الله يحب الحياء وأهله:

فقد أخرج الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما عن يعلى بن أمية رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يغتسل بالبَرَاز(٤) بلا إزار ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ﷺ : **«إن الله حيى(٥) ستير يحب الحياء والستر ، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر»** (٦) .

وأخرج الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبى بكرة ، وابن ماجه عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال للأشج العَصَرى : **«إن فيك خَصْلَتين يحبهما الله : الحِلْمُ والحياء »** (٧) .

---

(١) شرح النووى على صحيح مسلم ٧ / ٤١٤ .

(٢) « المستدرك » (٤ / ٣٨٧) وصححه ووافقه الذهبى .

(٣) فتح البارى ١ / ١٢٨ .

(٤) البراز : المراد به هنا الفضاء الواسع .

(٥) حيى : كثير الحياء .

(٦) أخرجه أبو داود : كتاب الحمام ، باب النهى عن التعرى ، والنسائى : كتاب الغسل والتيمم : باب الاستتار عند الغسل ، وأحمد فى « المسند » (١٤ / ٢٢) ، وصححه الألبانى (صحيح الجامع برقم ١٧٥٦) .

(٧) أخرجه ابن ماجه : كتاب الزهد ، باب الحلم ، وأحمد فى « المسند» (١٣ / ٥١٢) ، وصححه =

وفى هذا من الحث على الحياء، وبيان فضله، ومنزلة أهله، ما يعين على نشره والتخلق به، إذ ليس بعد محبة الله لعبده غاية أو مطلب .

المبحث الرابع : بعض الآثار والأقوال الواردة فى الحياء وفضله، والحث على التخلق به :

١ ـ روى القشيرى عن أبى سليمان الدارانى فى أثر إلهى يقول : قال الله تعالى : يا عبدى إنك ما استحييت منى أنسيتُ الناس عيوبك، وأنسيتُ بقاع الأرض ذنوبك، ومحوتُ من أم الكتاب زلاتك، ولا أناقشك فى الحساب يوم القيامة .

٢ ـ وقال : وأوحى الله عز وجل إلى عيسى عليه السلام : عظ نفسك، فإن اتعظت، وإلا فاستحى منى أن تعظ الناس (١) .

٣ ـ وقال : وقيل : إذا جلس الرجل ليعظ الناس ناداه ملكاه : عظ نفسك بما تعظ به أخاك وإلا فاستحىِ من سيدك فإنه يراك (٢) .

٤ ـ وقال أبوبكر رضي الله عنه وهو يخطب الناس : يا معشر المسلمين استحيوا من الله، فوالذى نفسى بيده إنى لأظل حين أذهب الغائط فى الفضاء متقنعًا بثوبى استحياء من ربى عز وجل (٣) .

٥ ـ وقال عمر رضي الله عنه : من قلّ حياؤه قلّ ورعه، ومن قلّ ورعه مات قلبه (٤) .

= الألبانى (صحيح ابن ماجه برقم ٣٣٩٥)، وفى رواية مسلم : « الحلم والأناة » . صحيح مسلم : كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله .

(١) هذان الأثران ذكرهما أيضا ابن القيم فى مدارج السالكين ٢ / ٢٦٦ .

(٢) الرسالة القشيرية ٢ / ٤٥٦ ـ ٤٥٨ .

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا فى « مكارم الأخلاق » : باب ذكر الحياء وما جاء فيه، ص ٨٢ .

(٤) أخرجه ابن أبى الدنيا فى « مكارم الأخلاق » : الموضع السابق .

٦ ـ وقالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : رأس مكارم الأخلاق الحياء(١) .

٧ ـ وعن راود بن مطرف عن أبيه قال : كنا مع أنس بن مالك ، فاستقبله الناس قد انصرفوا من الجمعة فدخل دارًا ، وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من لا يستحى من الناس لا يستحى من الله** » (٢) .

٨ ـ وقال كعب الأحبار : لم يكن الحياء فى رجل قط فتطعمه النار أبدًا (٣) .

٩ ـ وروى عبدالرزاق فى مصنفه عن ابن عيينة عن ابن شبرمة أن رجلا لقى الناس يوم الجمعة قد انصرفوا ، فقال له حذيفة : تنكب سَنَن الناس ، فإنه لا خير فيمن لا حياء فيه (٤) .

١٠ ـ وروى عبد الرزاق أيضًا عن معمرعن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين أن زيد بن ثابت أتى المسجد يوم الجمعة ، فلقى الناس منصرفين فدخل دارًا فصلى فيها فقيل له : هلا أتيت المسجد قال : إن من لا يستحى من الناس لا يستحى من الله (٥) .

١١ ـ وقال إياس بن قُرَّة : كنت عند عمر بن عبدالعزيز فُذكِرَ عنده الحياء ، فقالوا : الحياء من الدين ، فقال عمر : بل هو الدين كله (٦) .

---

(١) المصدر السابق : ص ٦٢ .

(٢) أخرجه الطبرانى فى « الأوسط (٧ / ١٦١) ، وقال الإمام السفارينى : « لا يصح رفعه » (كشف اللثام شرح عمدة الأحكام ٦ / ٥٠٧)، وضعفه الألبانى (ضعيف الجامع برقم ٥٨٨٦) .

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا فى « مكارم الأخلاق » ص ٩٢ .

(٤) أخرجه عبد الرازق فى « المصنف » : كتاب الجمعة ، باب القوم يأتون المسجد يوم الجمعة بعد انصراف الناس .

(٥) أخرجه عبد الرازق فى « المصنف » : الموضع السابق .

(٦) أخرجه ابن أبى الدنيا فى « مكارم الأخلاق » : الموضع السابق ، ص ٧٧ ، وقد سبق تخريجه مرفوعًا ص ٤٤ .

١٢ ـ وقال الحسن : أربع من كُنَّ فيه كان كاملاً ، ومن تعلق بواحدة منهن كان من صالحى قومه : دين يرشده ، وعقل يسدده ، وحسبٌ يصونه ، وحياء يقوده [(١)].

وقال : الحياء والتكرم خصلتان من خصال الخير لم يكونا فى عبد إلا رفعه الله بهما [(٢)].

١٣ ـ وقال الفضيل بن عياض : خمسٌ من علامات الشقاء : القسوة فى القلب ، وجمود العين ، وقلة الحياء ، والرغبة فى الدنيا ، وطول الأمل [(٣)].

١٤ ـ وقال السرى : إن الحياء والأنس يطرقان القلب ، فإن وجدا فيه الزهد والورع حطَّا وإلا رحلا [(٤)].

١٥ ـ وقال بعض السلف : خف الله على قدْر قدرته عليك ، واستحى منه على قدْر قربه منك [(٥)].

١٦ ـ وقال أبو إسماعيل الهروى : « الحياء من أول مدارج أهل الخصوص يتولد من تعظيم منوط بود » [(٦)].

١٧ ـ وقال أبو حاتم ابن حبان البستى : « الواجب على العاقل لزوم الحياء لأنه أصل العقل وبذر الخير ، وتركه أصل الجهل وبذر الشر ، والحياء يدل على العقل كما أن عدمه دال على الجهل ، ومن لم ينصف الناس منه حياؤه ، لم ينصف منه قحته » [(٧)].

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية ، لابن مفلح ٢ / ١٨٤ .

(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا فى « مكارم الأخلاق » : الموضع السابق ، ص ٩٢ .

(٣) مدارج السالكين ٢ / ٢٦٦ .

(٤) الرسالة القشيرية ٢ / ٤٥٥ .

(٥) فتح البارى ١ / ٦٣ .

(٦) مدارج السالكين ٢ / ٢٧٠ .

(٧) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص ٥٩ .

وقال : « إن المرء إذا اشتد حياؤه صان عرضه ، ودفن مساويه ، ونشر محاسنه ، ومن ذهب حياؤه ذهب سروره ، ومن ذهب سروره هان على الناس ومقت ، ومن مقت أوذى ، ومن أوذى حزن ، ومن حزن فقد عقله ، ومن أصيب فى عقله كان أكثر قوله عليه لا له ، ولا دواء لمن لا حياء له ، ولا حياء لمن لا وفاء له ، ولا وفاء لمن لا إخاء له ، ومن قل حياؤه صنع ما شاء وقال ما أحب »(١) .

١٨ ـ وقال الأصمعى : سمعت أعرابيًا يقول : من كساه الحياءُ ثوبَه لم ير الناسُ عيْبَه (٢) .

١٩ ـ ولما احتضر الأسود بن يزيد بكى فقيل له : ما هذا الجزع ؟! قال : مالى لا أجزع ، ومن أحق بذلك منى ؟ والله لو أتيتُ بالمغفرة من الله عز وجل لهمَّنى الحياءُ منه مما قد صنعته ، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنبُ الصغير فيعفو عنه فلا يزال مستحييا منه (٣) .

٢٠ ـ وقال ابن جرير الطبرى :

إذا أعْسَرتُ لم يعْلم رفيقى ... وأستَغْنِى فيستغنى صديقى
حيائى حافظٌ لى ماءَ وجْهِى ... ورِفْقِى فى مُطالبتى رفيقى
ولو أنى سَمحْتُ ببذل وجهى ... لكنت إلى الغنى سَهلَ الطريقِ (٤)

٢١ ـ وقال صالح بن عبد القدوس :

إذا قلَّ ماءُ الوجهِ قلَّ حياؤُه ... ولا خيرَ فى وجهٍ إذا قلَّ ماؤُهُ

---

(١) روضة العقلاء ص ٦١ .

(٢) الآداب الشرعية ٢ / ١٨٥ .

(٣) حلية الأولياء ٢ / ١٠٣ ، وسير أعلام النبلاء ٤ / ٥٢ .

(٤) تاريخ بغداد ١ / ٤٤٩ .

حـــياؤُك فاحفــظْه علــيكَ فإنمـــا يَدُلُّ على فِعْـــلِ الكريمِ حيـــاؤُه [(١)]

٢٢ ـ وقال أبو دُلَف العجْليُّ :

إذا لم تصن عِرضًا ولم تخشَ خالقًا ولم ترْعَ مخلوقًا فما شئـتَ فاصنعِ[(٢)]

٢٣ ـ وقال أبو عرابة الدوسى :

إني كأنّــى أرى مــن لاحــياء لــه ولا أمانـةَ وَسْـطَ الناسِ عُريـانا [(٣)]

٢٤ ـ وقال آخر :

إذا رُزِقَ الفـتى وجْـهًـا وَقَـــاحًا تقلّب فى الأمــور [(٤)] كما يشـاء

ورُبَّ قبيـــحةٍ ما حـالَ بيـنـــى وبـين ركوبِـــهـا إلا الحـيـــاءُ

فكـــان هـــو الـــدواءَ لـــها ولكنْ إذا ذهــبَ الحـيـــاءُ فـــلا دواء[(٥)]

٢٥ ـ وقال الفرزدق فى مدح على زين العابدين بن الحسين بن على رضى الله عنهم :

يُغْضِى حياءً ويُغْـضَى من مهابتـه فمـا يُكَـــلَّم إلا حـين يبتـــسمُ [(٦)]

❊ ❊ ❊

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٢) الآداب الشرعية ٢ / ١٨٤ .

(٣) تفسير الثعلبى (الكشف والبيان) ٤ / ٢٢٦ .

(٤) ورد هـذا البيت فى الآداب الشـرعية ٢ / ١٨٥ بلفـظ (الوجـوه) بـدل (الأمور) .

(٥) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص ٦١ .

(٦) ديوان الفرزدق ص ٥١٢ .

الفصل الثالث

أنواع الحياء

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : أنواع الحياء بالنظر إلى أصل منشئه فى الإنسان .

المبحث الثانى : أنواع الحياء بالنظر إلى المستحيا منه.

الفصل الثالث

أنواع الحـــياء

المبحث الأول : أنواع الحياء بالنظر إلى أصل منشئه فى الإنسان:

قسم العلماء الحياء إلى تقسيم رُوعى فيه النظر إلى أصل منشئه فى الإنسان . فهو بهذا الاعتبار ينقسم إلى نوعين :

أحدهما : الغريزى ، أو الفطرى أو الطبيعى ، أو النفسانى ، وهو ما كان خَلْقًا وجبلة فى الإنسان غير مكتسب كالحياء من كشف العورة ، وخروج الريح ، وقضاء الحاجة . . وغيرها ، والناس فى هذا يتفاوتون ، والحياء بهذا الوصف لا يتقيد بالدين ولا بالجنس ، وقلما يخلو الإنسان مطلقًا من هذا النوع من الحياء وإن كان يختلف باختلاف أطوار حياته ، ويتأثر بنشأته وبيئته . . وربما بمكانته بين الناس ، وعلى قدر ذلك يكون اكتساب الحياء ميسورًا عليه عند إرادته .

ومن هذا قول أبى سفيان قبل أن يسلم : فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علىَّ كذبًا لكذبت عنه (١) ، وذلك لما أرسل إليه هرَقْلُ وهو بالشام . . فأتاه أبو سفيان فى جمع من أصحابه ليسألهم هرقل عن رسول الله ﷺ ، فسأل أبا سفيان قائلاً لأصحابه أولاً : إن كذبنى فكذِّبوه ، فاستحيا أبو سفيان أن يكذب خشية أن ينقل عنه الكذب أو يؤخذ عليه . . وكان كافرًا .

كما أن هرقلاً كان قد أمر بجعل أصحابه عند ظهره ، قال ابن حجر : « أى : لئلا يستحيوا أن يواجهوه بالتكذيب إن كذب » (٢) فهذا أيضًا من الحياء الغريزى . . وهو غير منضبط ؛ بل تتحكم فيه المصالح والأهواء وتختلف فيه الأنفس والطباع .

---

(١) أخرجه البخارى فى أول صحيحه ، باب كيف كان بَدْءُ الوحى إلى رسول الله ﷺ .

(٢) فتح البارى ١ / ٢٨ .

ثانيهما : المكتسب أو الإيمانى ، وهو ما كان مكتسبًا من الدين والإيمان ومعرفة الله والاقتداء برسوله ﷺ ؛ فيفتقر إلى علم ونية وعمل ولا شك أن هذا القسم أعلى من سابقه ، فإن صادف فطرة سليمة ونفسًا طيبة ، وجبلة سوية كان حياؤها تامًا وإيمانها كاملاً وهذا هو أعلى أنواع الحياء ، لأنه نبع الإيمان ، وهو المكلف به . ولذا يختلف باختلاف درجة الإيمان قوة وضعفًا . . زيادة ونقصانًا . . حتى يصبح فى حال قوته متحداً بطبيعة الإنسان يصعب فصله عنها أو تمييزه ، وفى حال ضعفه تكلفًا تفرضه عليه ـ فى كثير من أحواله ـ أمور خارجة عن إرادته ، وهذا الحياء هو الذى يمنع صاحبه من فعل المعاصى مراقبة لله وخوفًا وحياء منه .

ويرجع هذا التقسيم إلى أصل الخُلُق ، حيث ينقسم إلى جبلى ومكتسب ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾(١) أى : أفلح من زكى نفسه بالطاعة ، وطهرها من رذائل الأخلاق الغريزية وخاب من دسها فى المعاصى ونسيها مغموسة فى طبيعتها الذميمة دون أن يستنقذها منها لتكون على مقتضى الشرع خلقًا حسنًا ، كما يدل عليه قوله ﷺ لأشج عبد القيس : « **إن فيك خَلَّتين يحبهما الله : الحلم والأناة** » قال : يا رسول الله ، أنا أتخلق بهما أم الله جبلنى عليهما ؟ قال : « **بل الله جبلك عليهما** » قال : الحمد لله الذى جبلنى على خَلَّتين يحبهما الله ورسوله(٢) .

قال ابن القيم رحمه الله : « فدل على أن من الخلق ما هو طبيعة وجبلة ، وما هو مكتسب ، وكان النبى ﷺ يقول فى دعاء الاستفتاح ـ أى : استفتاح الصلاة ـ : « **اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها ، لا**

---

(١) سورة الشمس : ٧ ـ ١٠ .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه : كتاب الأدب ، باب فى قُبلة الرِّجل ، وأصل الحديث فى صحيح مسلم مطولاً : كتاب الإيمان ، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ، دون استفهام الأشج .

يصرف عني سيئها إلا أنت »[1] فذكر الكسْب والقَدَر »[2] على أنه ﷺ جُمع له بينهما على أكمل حال فأوجد الله فيه أصول الأخلاق الحسنة العظيمة جبلة وسجية وطبعًا ، وكمله بها تأديبًا وتعليمًا وشرعًا ، فحق عليه قول ربه الكريم : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[3] ، وحق علينا التأسي به فيها اقتداء وتقديرًا : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[4] .

المبحث الثانى : أنواع الحياء بالنظر إلى المستحيا منه :

وأما أنواع الحياء ـ بالنظر إلى المستحيا منه ـ فثلاثة : حياء من الله ، وحياء من الناس ، وحياء من النفس ، ولابد من هذه الأنواع الثلاثة لكى يكمل الحياء ويتحقق فى الإنسان على أكمل وجه وأتمه .

أولا : الحياء من النفس :

أما الحياء من النفس : فيكون بالعفة ، وصيانة الخلوات : أى مراقبة الله فيها ، فبعض الناس إذا ما كان فى العلن أظهر العفة والفضيلة وكل علائم التقوى ، فإذا ما خلا بنفسه لا يتورع عن فعل كل المنكرات ، وهذا يراعى نظر الخلق ، ولا يراعى نظر الخالق جل جلاله ، ولا يراعى حق نفسه بالاستحياء منها ، كهؤلاء الذين يشاهدون أفلام العرى والعهر فى خلواتهم ، يستحيون من الناس ولا يستحيون من الله وهو معهم ، ولا يستحيون من الملائكة الذين يرقبونهم ويشهدون عليهم .

---

(١) أخرجه مسلم : كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب صلاة النبى ﷺ ودعائه بالليل ، عن على بن أبى طالب رضي الله عنه .

(٢) مدارج السالكين ٢ / ٣٢٣ .

(٣) سورة القلم : ٤ .

(٤) سورة الأحزاب : ٢١ .

فليكن استحياؤك من نفسك أكثر وأولى من استحيائك من غيرك ، فإن الذى لا يستحيى من نفسه لا يعرف لها قدرًا ولا قيمة ، بل هى عنده أقل وأحقر من أن يستحيى منها وإن زعم عزتها وشرفها .

قال الشيخ محمد الغزالى ـ رحمه الله ـ فى (خلق المسلم) : «على أن الإنسان ينبغى أن يخجل من نفسه كما يخجل من الناس ، فإذا كره أن يروه على نقيصة فليكره أن يرى نفسه على مثلها ، إلا إذا حسبها أحقر من أن يستحى منها ، وقد قيل : من عمل فى السر عملاً يستحى منه فى العلانية فليس لنفسه عنده قدر ، ومن ثم كان لزامًا على المسلم أن يبتعد عن الدنايا ، ما ظهر منها وما بطن ، سواء خلا بنفسه أو برز إلى الناس» (١) .

فإن وقع الإنسان فى هذا ، فعليه أن يسلط على نفسه سلاح المراقبة والمعاقبة ، أو يعالجها به حتى تستحيى فى السر كما تستحيى فى العلن ، قال أبو العتاهية :

إذا ما خلوتَ الدَّهرَ يومًا فلا تقل ... خلوتَ ولكن قل علىَّ رقيبُ

ولا تحسبَنَّ اللهَ يُغْفِلُ ما مَضَى ... ولا أنَّ ما يَخْفى عليه يغيب (٢)

ومما أوحى الله به إلى داود عليه السلام :

قل لبنى إسرائيل : تغفلون عنى والأقلام جارية لم تغفل؟ قل للذين أغلقوا أبوابهم وأرخوا ستورهم عند المعاصى : أنى لو شئت أهلكتهم وخسفت بهم الأرض (٣) .

ثانيا : الحياء من الناس :

وأما الحياء من الناس : فيكون بكف الأذى عنهم ، واحتمال الجفا منهم ،

---

(١) خلق المسلم ص ١٦١ . (٢) ديوان أبى العتاهية ص ٣٤ .

(٣) تنبيه المغترين ، للإمام الشعرانى ص ٢٠٣ .

والتواضع لهم، والرفق بهم والإحسان إليهم، وأداء حقوقهم، والاعتراف بمنازل أهل الفضل منهم، وتوقير كبيرهم، والعطف على صغيرهم، ونصر ضعيفهم، وعدم مجابهتهم بما يكرهون، وترك المجاهرة بأى معصية أو فعل قبيح.

ويتضمن هذا الإجمال تفصيلات كثيرة وردت بها السنة يدركها أهل الإدراك والإحساس مما يطول المقام بذكرها، ولكن سيأتى عند الكلام عن حيائه ﷺ ما يبين ذلك.

ثالثا: الحياء من الله:

وأما الحياء من الله: فهو أسمى منازل الحياء، وهو جماع الخير كله، فجميع أنواع الحياء تنبثق منه وتندرج فيه، فإن من استحيا من الله حقًا، استحيا من الناس ومن النفس، ومن لم يستح منه فلجهله به وعدم مراقبته له. ويكون ذلك إجمالاً بمعرفة حقه وتعظيمه حق قدره بامتثال أوامره والكف عن زواجره، واستحضار عظمته فلا يراه حيث نهاه ولا يفقده حيث أمره، يدفعه إلى كل ذلك قلب هائم فى حب دائم، وشوق مقلق فى خوف مزعج [1]، وحنين مستمر إلى لقائه والقرب منه، وهذا هو أقل أنواع الحياء.

وتفصيل ذلك يطول، والتحقق به ميسور، لمن عنده عزم وهمة.

ويجمع ذلك حديث واحد من تحقق به تحقق بالحياء الحق من الله عز وجل، بل لا يكمل له حياء إلا به.

---

(١) من أهم علامات الحياء ألا يخاف الإنسان غير الله. قال القشيرى فى الرسالة باب الحياء (٢ / ٤٥٦، ٤٥٧): «روى أن بعضهم مَروا برجل نائم وفرسه عند رأسه ترعى فحركوه، وقالوا له: ألا تخاف أن تنام فى هذا الموضع المخوف وهو مسْبعٌ (أى: كثير السباع)؟! فرفع رأسه وقال: أنا أستحيى منه أن أخاف غيره ووضع رأسه ونام» (ذكر هذا أيضا هناد بن السرى فى الزهد ١ / ٦٣٣، وقال محققه محمد أبو الليث: إسناده صحيح، نقلاً عن نضرة النعيم ٥ / ١٨١١).

وهو ما أخرجه الترمذى وأحمد والبيهقى والحاكم وصححه ووافقه الذهبى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «استحيوا من الله حق الحياء» قال: قلنا: يا رسول الله، إنا نستحيي والحمد لله، قال: «ليس ذاك، ولكنّ الاستحياء من الله حقَّ الحياء أن تحفظ الرأسَ وما وعى والبطنَ وما حوى ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء» (١) .

فهذا الحديث على وجازته استوعب جميع الأحكام الخاصة بالإنسان، بل استوعب الدين كله، ودل على طريق الحياء الحق بأقرب الوسائل وأظهرها وأيسرها، ومع ذلك فهو عند التطبيق صعب جدًا بل لا يستطيعه إلا أهل الكمال من الرجال.

وخلاصته: أن يحفظ الإنسان قلبه وجوارحه عن كل الآثام حتى ينتهى به المقام إلى أن يحفظ قلبه عن الهمم الدنية، والخطرات النفسانية والشهوانية، حتى يصل إلى كف القلب عما سوى الرب بالكلية. وهذا هو أعلى أنواع الحياء وأتمه وأكمله.

وقد ذكر الإمام القشيرى (٢) أنواعًا أخرى للحياء: كحياء الجناية، وحياء التقصير، وحياء الإجلال، وحياء الكرم، وحياء الحشمة، وحياء الاستحقار، وحياء الإنعام، وزاد ابن القيم (٣) عليها: حياء المحبة، وحياء العبودية، وحياء الشرف والعزة.. وهذه الأنواع تختلف باختلاف سبب الحياء الدافع إليه، وتلون صفة النفس به، فهى أوصاف النفس فى حيائها؛ باستشعار المعانى الواردة عليها، وهذا قد لا ينحصر.

---

(١) أخرجه الترمذى: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ٢٠، وأحمد فى «المسند» (٣/ ٥٣٨، ٥٣٩)، وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده ضعيف»، والحاكم فى «المستدرك» (٤ / ٤٦٧) وصححه ووافقه الذهبى، والبيهقى فى «شعب الإيمان» (١٠ / ١٦٩)، وحسنه الألبانى (صحيح الجامع برقم ٩٣٥).

(٢) الرسالة ٢ / ٤٥٧، ٤٥٨.

(٣) مدارج السالكين ٢ / ٢٦٧ ـ ٢٦٩.

الفصل الرابع

حياء الله جل جلاله

والفرق بينه وبين حياء العبد

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : الحياء صفة من صفات الله جل جلاله.

المبحث الثانى : الفارق بين حياء المخلوق وحياء الخالق .

الفصل الرابع

حياء الله جل جلاله والفرق بينه وبين حياء العبد

المبحث الأول : الحياء صفة من صفات الله جل جلاله :

الحياء فى أفقه الأعلى وصف يوصف به الرب جل جلاله وهو خلق من أخلاقه ، فالرب حييٌ كريم يستحيى من عبده إذا دعاه أن يرد يديه بلا عطاء كما فى الحديث ، فقد روى الترمذى وحسنه عن سلمان الفارسى عن النبى ﷺ قال : «**إن الله حييٌ كريم ، يستحى إذا رفع الرجل إليه يديه أن يَرُدَّهُمَا صِفْرا خائبتين**» (١) .

وفى بعض الكتب الإلهية : ما أنصفنى عبدى ، يدعونى فأستحيى أن أرده ، ويعصينى فلا يستحيى منى (٢) .

ويستحيى الله من عبده إذا شاب فى الإسلام أن يعذبه ، كما جاء فى الحديث : «**يقول الله : إنى لأستحيى من عبدى وأمتى يشيبان فى الإسلام أعذبهما بعد ذلك** » (٣) .

فالمراد بالحياء هنا : العطاء وترك التعذيب ، لا انقباض النفس لاستحالته على الله وتنزهه عنه .

---

(١) أخرجه الترمذى : أبواب الدعوات ، باب ١٢١ ، وحسنه ، وأبو داود : أبواب فضائل القرآن ، باب الدعاء ، وصححه الألبانى (صحيح الجامع برقم ١٧٥٧) .

(٢) الرسالة القشيرية ٢ / ٤٥٨ ، ومدارج السالكين ٢ / ٢٦٦ ، وأخرجه الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد ١٠ / ٢٨٧ بلفظ : « قال تعالى : ما أنصفنى ابن آدم ، يدعونى فأستحيى منه ، ويعصينى ولا يستحيى منى » .

(٣) أخرجه ـ بهذا اللفظ ـ ابن أبى الدنيا فى « العمر والشيب » ص ٤٧ ، عن أنس ، وبنحوه أبو نعيم فى « الحلية » (٢ / ٣٨٦ ، ٣٨٧) ، وهو ضعيف جدًا ، فيه محمد بن عبد الله بن زياد ، منكر الحديث جدًا (المجروحين ، لابن حبان ٢ / ٢٧٧) ، وأورده ابن الجوزى فى « الموضوعات » (١ / ٢٨٠) ، وتعقب بأنه ضعيف (غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ، للسفارينى ١ / ٣٢٩) .

قال الإمام القشيرى فى(لطائف الإشارات) : « الاستحياء من الله بمعنى الترك ، فإذا وصف نفسه بأنه يستحيى من شىء ، فمعناه أنه لا يفعل ذلك ، وإذا قيل : لا يستحيى فمعناه : لا يبالى بفعل ذلك» (١) .

وليس معنى ذلك الأمان لكل صاحب شيبة فى الإسلام ، بل معناه حثه على التوبة والرجوع إلى الله والإقلاع عن المعصية حياء من الله . فإذا كان الله يستحى منك أن يعذبك أفلا تستحيى أنت أن تعصيه؟!

فالله سبحانه يستحيى أن يعذب من استحيا منه ، كما يستحيى أن يرى عبده على ذنب . . والعبد قد لا يستحيى .

قال يحيى بن معاذ : من استحيا من الله مطيعًا ، استحيا الله تعالى منه وهو مذنب ، وقال : سبحان من يذنب العبد فيستحيى هو منه (٢) .

المبحث الثانى : الفارق بين حياء المخلوق و حياء الخالق :

لكنَّ حياءه جل جلاله لا تدرك حقيقته الأفهام ، ولا تكيفه العقول ، ولا تبلغه الأوهام .

قال شيخنا الخطيب فى عقيدته :

وكل ما يخطرُ فى الأوهامِ فغيرُ ذِى الجلالِ والإكرامِ (٣)

فكل ما قيل فى حياء العبد لا يصلح أن يقال فى حياء الرب ، فالرب رب ، والعبد عبد .

---

(١) تفسير لطائف الإشارات ١ / ٧٠ .

(٢) الرسالة القشيرية ٢ / ٤٥٨ .

(٣) إتحاف الأخيار بأصح العقائد والأذكار ـ عقيدة الخطيب ـ لفضيلة الشيخ محمد خليل الخطيب ص ١٢٠ .

وأوصاف الله تعالى من الرحمة والرأفة والحياء وغيرها أوصاف أفعال وليست أوصاف انفعال، فيصرف المعنى إلى الفعل، فحياؤه تعالى حياء إنعام، وكرم، وجود، وبر، وجلال، فهو منزه عن الانفعال.

قال القشيري في الرسالة: «وحياء الإنعام هو حياء الرب سبحانه يدفع إلى العبد كتابًا مختومًا بعدما عبر الصراط، وإذا فيه: فعلتَ ما فعلتَ، وقد استحييت أن أظهره عليك، فاذهب فإني قد غفرت لك» (١).

قلت: وهذا إذا رضي الله عن العبد، وهو مستلهم من أحاديث وردت بهذا المعنى.

* * *

(١) الرسالة القشيرية، باب الحياء ٢ / ٤٥٨.

الفصل الخامس

الحياء الممدوح . . والحياء المذموم

وفيه مباحث :

المبحث الأول : الضابط فى مدح الحياء وذمه .

المبحث الثانى : ما ينسب إلى الحياء وليس منه .

المبحث الثالث : نهى الشرع عن الاستحياء من الحق، وطلب العلم ، وسؤال أهله .

المبحث الرابع : الرد على بعض ما ورد مما يوهم الاستحياء مما لا يستحيا منه .

الفصل الخامس

الحياء الممدوح .. والحياء المذموم

المبحث الأول : الضابط فى مدح الحياء وذمه :

كثيرًا ما تنسب بعض الأفعال إلى الحياء وهى فى الحقيقة ليست منه ، بل ترجع إلى صفات مذمومة فى النفس كالجبن والعجز والخور والخجل المتولد من فرط الحياء الغريزى أو النفسانى ، والذى قد يمدح فى النساء والصبيان دون الرجال ، وذلك لمشابهتها للحياء فى ظواهرها وآثارها .

ومن هنا يطلق الناس عليها حياء مع ما قد يقع فيها من التقصير فى حقوق الله وحقوق عباده ، وما يقع بها من شرور ، فهى نسبة وتسمية عرفية أو مجازية .

والحياء الحقيقى كما قررنا لا يكون إلا خيرًا ولا يأتى إلا بخير ، وهذا ضابط مهم فى التفرقة بينهما ، كما أنه لابد أن يكون منضبطًا بقواعد الشرع وأصول الشريعة ، مقيدًا بمقاصدها ومآلاتها . فكل ما لا يصح شرعًا كالتقصير فى الواجب ، وترك الحق ، والسكوت على المعصية ، وترك السؤال فى العلم مع الحاجة إليه وعدم رفع الصوت مطلقًا ، وقبول الظلم ، والرضا بالضيم ، وما يشبه ذلك فهو مذموم وليس من الحياء ؛ بل هو من الجبن الذى يتشابه مع الحياء فى بعض ظواهره ، ولذا يوصف به الحَيِىُّ أحيانا ، والحقيقة أن الحياء يتنافى معه ، ويجتمع مع الشجاعة ، ولذا قال الشاعر :

يجرى الحياء الغض من قَسَماتهم ... فى حين يجرى من أكفهم الدم

وقال غيره :

كريم يغض الطرف فرط حيائه ... ويدنو وأطراف الرماح دوان

وكالسيف إن لاينته لان متنه ... وحداه إن خاشنته خشنان

المبحث الثانى : ما ينسب إلى الحياء وليس منه :

فبعض الناس يظن أن من الحياء أن يكون الإنسان ساكتًا دائمًا ، حتى عن الحق ، منخفض الصوت دائمًا حتى فى الغضب ، هادئا دائمًا حتى مع ما يثير النخوة والرجولة ، وهذا مفهوم خاطئ يتعارض مع كثير من النصوص والأحكام الأخرى التى تحث المسلم على الصدع بالحق مهما كان ، والغضب الشديد لدين الله وانتهاك محارمه والثورة على ما ينال من نخوة المرء ورجولته وهكذا . .

فقد كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء فى خدرها كما فى الحديث المتفق عليه (١) من حديث أبى سعيد الخدرى ، ومع ذلك كان أول من يصدع بالحق ويدافع عنه ولم يمنعه كمال حيائه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والغضب الشديد إذا انتهكت حرمة من حرمات الدين وهكذا .

ولما عاب المشركون واليهود (٢) على القرآن أنه ذكر الذباب والعنكبوت فيما أنزل ، وضرب الله للمشركين به المثل - حيث قال عن آلهتهم : ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ (٣) ، وجعل كيد آلهتهم كبيت العنكبوت ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) ، وقالوا : ما بال العنكبوت والذباب يذكران؟ أو ما أراد الله من ذكر هذا؟ نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا

---

(١) أخرجه البخارى : كتاب المناقب ، باب صفة النبى ﷺ ، ومسلم : كتاب الفضائل ، باب كثرة حيائه ﷺ .

(٢) سبق ذكر أسباب النزول الواردة فى هذه الآية ، وترجيح الظاهر منها .

(٣) سورة الحج : ٧٣ .

(٤) سورة العنكبوت : ٤١ .

الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١) .

والقصد أن الحق لا يُستحيا منه كما قال تعالى فى كتابه : ﴿وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ (٢) أى : لا يمتنع من بيان الحق، أو لا يأمر بالحياء فى الحق ولا يبيحه، أو لا يترك الحق حياء .

فالحياء من إحقاق الحق وإبرازه ومناصرته وطلبه، والنهى عن الإيذاء . . والمنكر، ومحاسبة المخطئين ، ومواجهة المعتدين ؛ ليس حياء بل هو ضعف وعجز وخور، قد نهى عنه الشرع .

وقد روى : « **الحياء حياءان : طرف من الإيمان ، والآخر عجز** »(٣)، وكل حياء يعود بالضرر على الإنسان ، فى دينه أو دنياه فهو حياء كاذب، وعجز مذموم .

ومن هذا الباب أيضا الحياء فى طلب العلم ، والسؤال عن مهمات المسائل فى الدين التى يجهلها الإنسان أو أشكلت عليه مهما كان السؤال ، فليسأل الإنسان عما يشاء لكن عليه أن يتخير الألفاظ ، وأن يستخدم الكنايات ـ عند الحاجة إليها ـ ما أمكن، خاصة إذا كان السؤال من امرأة لرجل عالم، أو العكس ، فكل هذا لا شىء فيه بضوابطه ، فهو حق ﴿وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ (٤) .

---

(١) سورة البقرة : ٢٦ ، وانظر : أسباب نزول القرآن، للواحدى ص ٢٦ ، ٢٧ ، وأسباب نزول القرآن للسيوطى ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) سورة الأحزاب : ٥٣ .

(٣) عزاه ابن رجب الحنبلى للحسن من مراسيله عن النبى ﷺ ، وقال ابن رجب : « ولعله من كلام الحسن » (جامع العلوم والحكم ص ٢٤٤) .

(٤) سورة الأحزاب : ٥٣ .

المبحث الثالث: نهى الشرع عن الاستحياء من الحق، وطلب العلم وسؤال أهله:

وقد وردت أحاديث كثيرة توجه إلى هذا الأمر وترشد إليه لأهميته.

فقد روى البخارى تعليقًا ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت: نِعْمَ النساءُ نساء الأنصار، لم يمنعْهن الحياء أن يتفقهن فى الدين(١).

وفى الصحيحين أيضا عن أم سلمة رضى الله عنها قالت: جاءت أم سُلَيْم - امرأة أبى طلحة - إلى النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيى من الحق (٢) فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ فقال النبى ﷺ: «**نعم، إذا رأت الماء**»، فغطت أم سلمة - تعنى وجهها - وقالت: يا رسول الله، وتحتلم المرأة؟ قال: «**نعم، تربت يمينك**(٣) **فبم يشبهها ولدها؟**»(٤).

قال ابن حجر: «قوله: (إن الله لا يستحيى من الحق) قدمت هذا القول تمهيدًا لعذرها فى ذكر ما يستحيا منه، والمراد بالحياء هنا معناه اللغوى، إذ الحياء الشرعى خير كله»(٥).

---

(١) أخرجه البخارى: كتاب العلم، باب الحياء فى العلم معلقا، وقال مجاهد: لا يتعلم العلم مستحيٍ ولا متكبر، ومسلم: كتاب الحيض، باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك فى موضع الدم.

(٢) قال العلماء: معناه: لا يمتنع من بيان الحق، وقيل: معناه: لا يأمر بالحياء فى الحق ولا يبيحه. (شرح صحيح مسلم للنووى ٢ / ٢٢٩).

(٣) معنى تربت يمينك أى: افتقرت، وهي كلمة جارية على ألسنة العرب لا يراد بها حقيقة الدعاء على المخاطب، كثكلته أمه، وويل له، ولا أم له، ولا أب له، وغيرها من ألفاظ تقال عند إنكار الشىء. أو الزجر عنه، أو الذم عليه أو استعظامه، أو الحث عليه أو الإعجاب به، وقيل معناها لله دَرُّك (لسان العرب. مادة: ترب، وشرح صحيح مسلم للنووى ٢ / ٢٢٧).

(٤) متفق عليه. أخرجه البخارى: كتاب العلم، باب الحياء فى العلم، ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المنى منها.

(٥) فتح البارى ١ / ٣٠٩.

وقد جاء فى بعض روايات الحديث عند مسلم عن أنس أن عائشة رضى الله عنها كانت عنده ـ أى عند رسول الله ﷺ ـ فقالت : يا أم سُليم ! فضحت النساء ، تربت يمينك ـ تنكر عليها سؤالها حياء ـ فقال رسول الله ﷺ لعائشة : «**بل أنت فتربت يمينك ، نعم فلتغتسل يا أم سليم ! إذا رأت ذاك**» (١) .

قال الإمام النووى : «وأما قوله ﷺ لعائشة : «**بل أنت فتربت يمينك**» فمعناه : أنت أحق أن يقال لك هذا ، فإنها فعلت ما يجب عليها من السؤال عن دينها فلم تستحق الإنكار ، واستحققت أنت الإنكار ؛ لإنكارك ما لا إنكار فيه» (٢) .

وهذه هى السيدة عائشة رضى الله عنها تروى حديثًا عن رسول الله ﷺ لأبى موسى ، لما اختلف رهط من المهاجرين والأنصار فى شأن الغسل ، فقال الأنصاريون : لا يجب الغسل إلا من الدَّفق أو من الماء ، وقال المهاجرون : بل إذا خالط فقد وجب الغسل . قال أبو موسى : فأنا أشفيكم من ذلك ، فقمت فاستأذنت على عائشة فأذن لى فقلت لها : يا أماه ! (أو يا أم المؤمنين !) إنى أريد أن أسألك عن شىء ، وإنى أستحييك ، فقالت : لا تستحى أن تسألنى عما كنت سائلاً عنه أمك التى ولدتك فإنما أنا أمك ، قلت : فما يوجب الغُسْلَ؟ قالت : على الخبير سقطت ، قال رسول الله ﷺ : «**إذا جلس بين شُعبها الأربع ، ومس الختانُ الختان ، فقد وجب الغُسْلُ**» (٣) .

وروى الإمام أحمد والترمذى أنها رضى الله عنها نزل بها ضيف فأمرت له بمِلْحَفة صفراء ، فنام فيها ، فاحتلم ، فاستحيا أن يرسل بها ، وفيها أثر الاحتلام ،

---

(١) صحيح مسلم : الموضع السابق .

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم ٢ / ٢٢٧ .

(٣) أخرجه مسلم : كتاب الحيض ، باب نسخ « الماء من الماء » ، والحديث ـ بنحوه مختصرًا ـ رواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة : كتاب الغسل ، باب إذا التقى الختانان .

فغمسها فى الماء ، ثم أرسل بها ، فقالت عائشة : لمَ أفسد علينا ثوبنا ؟ إنما كان يكفيه أن يفركه بأصابعه ، وربما فركته من ثوب رسول الله ﷺ بأصابعى(١) .

وهذه القصة رواها أيضا الإمام مسلم فى صحيحه (٢) مع اختلاف يسير ، ففيه أن الضيف هو عبد الله بن شهاب الخَوْلانى ، وأنه احتلم فى ثوبيه فغمسهما فى الماء . . . فقالت له عائشة رضى الله عنها : لقد رأيتنى وإنى لأحُكُّه من ثوب رسول الله ﷺ يابسًا بظفرى .

وأيا كانت الرواية فالشاهد : أن السيدة عائشة رضى الله عنها لم يمنعها الحياء من بيان حكم المنى إذا أصاب الثوب للضيف ولغيره رفعًا للجهل به ودفعًا للحرج والمشقة .

وبه استدل القائلون على طهارة المنى كالإمام الشافعى والإمام أحمد فى أصح الروايتين ، واستدل القائلون بنجاسته كالإمام أبى حنيفة والإمام مالك برواية الغسل عنها أيضا قالت : كان رسول الله ﷺ يغسل المني ثم يخرج إلى الصلاة فى ذلك الثوب ، وأنا أنظر إلى أثر الغسل فيه(٣) .

قال النووى : « ورواية الغسل محمولة على الاستحباب والتنزه واختيار النظافة . . . والصواب أنهما ـ أى : منى الرجل والمرأة ـ طاهران »(٤) .

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن الأسود ومسروق قال : أتينا عائشة لنسألها عن المباشرة للصائم فاستحيينا ، فقمنا قبل أن نسألها فمشينا لا أدرى كم . . ثم قلنا :

---

(١) أخرجه الترمذى : أبواب الطهارة ، باب ما جاء فى المنى يصيب الثوب ، وقال : «هذا حديث حسن صحيح» ، ومسند أحمد(٦ / ٤٣) عن همّام بن الحارث .

(٢) أخرجه مسلم : كتاب الطهارة ، باب حكم المنى ، وفيه روايات أخرى .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى : كتاب الوضوء ، باب غسل المنى وفركه ، ومسلم : الموضع السابق .

(٤) شرح صحيح مسلم ٢ / ٢٠١ .

جئنا لنسألها عن حاجة ثم نرجع قبل أن نسألها ! ، فرجعنا فقلنا : يا أم المؤمنين إنا جئنا لنسألك عن شيء فاستحيينا فقمنا فقالت : ما هو ؟ سلا عما بدا لكما ، قلنا : أكان النبي ﷺ يباشر وهو صائم ؟ ، قالت : قد كان يفعل ذلك ولكنه كان أملك لإربه منكم(١) . أي : أملك لنفسه وهواه وحاجته(٢) .

وروى الإمام أحمد في مسنده أيضا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال على المنبر : أيها الناس إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لا يقطع الصلاة إلا الحدث** » ، لا أستحييكم مما لا يستحيي منه رسول الله ﷺ قال : والحدث أن يفسو أو يَضْرِط(٣) .

فلم يمنعه الحياء من بيان ما يحتاج الناس إلى معرفته . . لضرورة التعليم وإن كان في بعض لفظه ما قد يُستحيا من ذكره بلا حاجة أو ضرورة .

المبحث الرابع : الرد على بعض ما ورد مما يوهم الاستحياء مما لا يستحيا منه :

استحياؤه ﷺ ممن سألته عن كيفية الاغتسال من المحيض :

أما ما روي عن السيدة عائشة رضي الله عنها : أن امرأة من الأنصار قالت للنبي ﷺ : كيف أغتسل من المحيض ؟ قال : «**خذي فِرْصَةً مُمَسَّكَةً**(٤) **فتوضئي**(٥)

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦ / ٢١٦)، وأصله في صحيح مسلم : كتاب الصيام ، باب بيان أن القبلة في الصوم ليست محرمة على من لم تحرك شهوته .

(٢) أصل الإرْب ـ بكسر الهمزة وفتحها ـ : الوطر والحاجة (لسان العرب . مادة أرب)، وشرح صحيح مسلم ٤ / ٢٣٥ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » (٢ / ٨٩) ، والبيهقي في « الكبرى» (١ / ٣٣٨) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده ضعيف » .

(٤) أي : قطعة من صوف أو قطن مطيبة وفرصة بكسر الفاء وإسكان الراء (فتح الباري ١ / ٣٣٠) .

(٥) توضئي : أي : تنظفي ، (فتح الباري : الموضع السابق) .

ثلاثاً » ـ وفى رواية : «**فتطهرى بها**» ـ ثم إن النبى ﷺ استحيا فأعرض بوجهه أو قال : «**توضئى بها** » فأخذتها فجذبتها فأخبرتها بما يريد النبى ﷺ (١).

فذلك لأن المرأة سألت ـ كما فى رواية عند مسلم ـ كيف أتطهر بها ؟ قال : « **تطهرى بها .. سبحان الله** » واستتر ، قال الراوى : وأشار لنا سفيان بن عيينة بيده على وجهه(٢).

وسؤالها إنما كان فى أمر ظاهر لا يحتاج إلى شرح وتوضيح خاصة فى هذه الأمور التى يستخدم فيها التعريض والكناية لا التصريح الذى يكون سببا فى خدش الحياء ، ولذلك قال النبى ﷺ : «**سبحان الله** » متعجبًا ، يقول الإمام النووى : « وفيه استحباب استعمال الكنايات فيما يتعلق بالعورات » (٣).

ويقول ابن حجر : « وفيه الاكتفاء بالتعريض والإشارة فى الأمور المستهجنة وتكرير الجواب لإفهام السائل ، وإنما كرره مع كونها لم تفهمه أولاً لأن الجواب به يؤخذ من إعراضه بوجهه عند قوله : « **توضئى**» أى فى المحل الذى يستحيا من مواجهة المرأة بالتصريح به ، فاكتفى بلسان الحال عن لسان المقال ، وفهمت عائشة رضى الله عنها ذلك عنه فتولت تعليمها »(٤).

استحياء السيدة عائشة رضى الله عنها من أمر الرجال بالاستطابة بالماء :

وأما ما روى عنها أنها قالت : مُرْنَ أزواجَكُنَّ أن يستطيبُوا بالماء فإنى أستحييهم ، فإن رسول الله ﷺ كان يفعله (٥)، وفى رواية : مُرن أزواجكن أن يغسلوا عنهم

---

(١) أخرجه البخارى : كتاب الحيض ، باب غسل المحيض ، ومسلم : كتاب الحيض ، باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك فى موضع الدم .

(٢) أخرجه البخارى : كتاب الحيض ، باب دلك المرأة نفسها إذا تطهرت من المحيض . . . ، ومسلم : الموضع السابق ، واللفظ له . (٣) شرح صحيح مسلم ٢ / ٢٥١ . (٤) فتح البارى ١ / ٣٣٠ .

(٥) أخرجه الترمذى : أبواب الطهارة ، باب ما جاء فى الاستنجاء بالماء ، وصححه ، والنسائى : كتاب الطهارة ، باب الاستنجاء بالماء ، وصححه محققوه .

أثر الغائط والبول فإنا نستحيي منهم ـ أو فإنا نستحيي أن ننهاهم عن ذلك ـ فإن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك [١]. فليس فيه ما يفيد امتناعها عن بيان الحق تعليمًا ، والإرشاد إلى الأولى والأفضل فى الاستنجاء حياء ، بل هي بينت ذلك ، فلا تعارض ، إنما كان حياؤها من مواجهتهم بما يكرهون . . فأمرت من لا يسبب لهم حياء ولا حرجًا بتوجيههم أن يفعلوه . . ، وهذا من كمال الحياء .

استحياء السيدة عائشة إنكارًا على من وهبن أنفسهن للنبى ﷺ :

وأما ما روى عنها أنها قالت : « أما تستحيى المرأة أن تهب نفسها للرجل ، منكرة على من وهبن أنفسهن للنبى ﷺ مُعيِّرة لهن ، فلما أنزل الله تعالى : ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾[٢] قالت : ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك ، فقد حملها على ذلك الغيرة التى طبعت عليها المرأة أولاً ، وهو ما أشارت إليه فى مقدمة حديثها فى رواية الصحيحين [٣] حيث قالت : كنت أغار على اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول : أتهب المرأة نفسها؟! ، ولذلك قال الإمام القرطبى فى المفهم [٤] : « وقولها : (أما تستحيى المرأة تهبُ نفسها ؟!) تقبيح منها على من فعلت ذلك ، وتنفير أوجبه غيرتها ؛ وإلا فقد علمت أن الله تعالى أباح هذا للنبى ﷺ خاصَّة » ، كما قال أيضا فى قولها : (ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك) : « قول أبرزته الغيرة والدلال » .

قال ابن حجر : « والغيرة يغتفر لأجلها إطلاق مثل ذلك» [٥] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٦ / ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٠ ، ١٧١ ، وصححه الإمام النووى (المجموع ٢ / ١٠١) .

(٢) سورة الأحزاب : ٥١ .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى : كتاب التفسير ـ سورة الأحزاب ـ ، باب قوله : ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ . . ، ومسلم : كتاب الرضاع ، باب جواز هبتها نوبتها لضرتها .

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٤ / ٢١١ .

(٥) فتح البارى ٩ / ١٣٥ .

قلت : ويمكن أن يكون ذلك قد جرى منها أيضا على مقتضى الطبع والعرف فى الاستحياء من أن تهب المرأة نفسها لرجل - وهذا أمر خاص بالرسول ﷺ - ، أو تعرض نفسها عليه ، أو يعرضها وليها أيضا ، فيرجع ذلك إلى الحياء الجبلى والعرف البيئى والمجتمعى لا إلى الحياء الشرعى ، فإذا علم من الشرع استحبابه ذلك أو جوازه وإباحته - حيث لا يمنع منه ولا يلزم به - فلا موضع للاستحياء منه ، إلا إذا طرأ عليه شيء آخر يخرجه عن إطاره كعدم تقدير الطرف الآخر لذلك ، أو فهمه له على غير وجهه الصحيح ، لعدم معرفة أدب الشرع فيه . . مما قد يترتب عليه ضرر للمرأة أو للولى ، فالأمر يختلف ، والمنع يرد .

ويفهم من قول السيدة عائشة رضى الله عنها : ما أرى ربك إلا يسارع في هواك - أى : فى رضاك - رضاها بما رضيه الله لنبيه ﷺ ، وإن غلب عليها الدلال والغيرة فى لفظها .

ومما يقوى ما ذهبتُ إليه من أن نعى السيدة عائشة وإنكارها كان على مقتضى الطبع والعرف أيضا ، مع غيرتها : أن ابنة لسيدنا أنس رضى الله عنه أنكرت مثل ذلك واستقبحته عندما سمعته من أبيها . . فأنكر عليها إنكارها ، هذا مع انتفاء الغيرة فى حقها .

فقد روى البخارى فى كتاب النكاح من صحيحه (١) ، باب عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح ، عن ثابت البنانى قال : كنت عند أنس وعنده ابنةٌ له ، قال أنس : جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ تَعْرِضُ عليه نفسها ، قالت : يا رسول الله ألك بى حاجة ؟ ، فقالت بنتُ أنس : ما أقلَّ حياءها ، واسوأتاه . . واسوأتاه (٢) ،

---

(١) وفى كتاب الأدب ، باب ما لا يستحيى من الحق للتفقه فى الدين .

(٢) أصل السوءة : الفعلة القبيحة ، وهو المراد هنا ، وتطلق على الفرج ، والألف للندبة ، والهاء للسكت (فتح البارى ٩ / ١٤٣ ، ١٤٤) .

قال : هي خير منك . . رغبتْ في النبي ﷺ فعرضت عليه نفسها . فقد بين أنه لا استحياء في ذلك ، خاصة مع خير البشر ﷺ . قال الإمام ابن حجر : « وفي الحديث جواز عرض المرأة نفسها على الرجل - أي : الصالح - ، وتعريفه رغبتها فيه ، وأن لا غضاضة عليها في ذلك » (١) .

وفي شرحه لحديث (٢) عمر رضي الله عنه وعرض ابنته حفصة - لما تأيمت من خُنيس بن حُذافة السهمي - ، على عثمان ثم على أبي بكر ، ورفضهما ؛ لعلم أبي بكر برغبة النبي فيها ، ورغبة عثمان في الزواج من أم كلثوم رضي الله عنها ، أو لعلمه بما بلغ أبا بكر أيضا (٣) ، قال ابن حجر : « وفيه عرض الإنسان بنته وغيرها من مولياته على من يعتقد خيره وصلاحه ، لما فيه من النفع العائد على المعروضة عليه ، وأنه لا استحياء في ذلك » (٤) .

استحياء الإمام على رضي الله عنه من سؤال رسول الله ﷺ عن المذي :

وأما استحياء الإمام علي رضي الله عنه من سؤال رسول الله ﷺ عن المذي فذلك لمكان ابنته منه ، فالاستحياء إنما كان من السؤال مباشرة ، لما بينهما من خصوصية قد تسبب حرجًا ، فعُدَّ ذلك من حسن المعاشرة لا من الحياء المذموم .

ففي الصحيحين عن علي رضي الله عنه قال : كنت رجلاً مذَّاءً ، وكنت أستحيي أن أسأل النبي ﷺ لمكان ابنته ، فأمرتُ المقداد بن الأسود فسأله فقال : « **يغسلُ ذكره ويتوضأ** » (٥) .

قال الإمام النووي : « وفيه استحباب حسن العشرة مع الأصهار ، وأن الزوج

---

(١) المصدر السابق ٩ / ١٤٤ .

(٢) أخرجه البخاري : كتاب النكاح ، باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير .

(٣) فتح الباري ٩ / ١٤٥ . (٤) المصدر السابق ٩ / ١٤٦ .

(٥) متفق عليه . أخرجه البخاري : كتاب الغسل ، باب غسل المذي والوضوء منه ، ومسلم : كتاب الحيض ، باب المذي .

يستحب له أن لا يذكر ما يتعلق بجماع النساء ، والاستمتاع بهن بحضرة أبيها وأخيها وابنها وغيرهم من أقاربها ، ولهذا قال على رضي الله عنه : فكنت أستحيى أن أسأل رسول الله ﷺ لمكان ابنته » (١)، وهذا ما يسمى بحياء الحشمة (٢) .

استحياء ابن عمر رضى الله عنهما من إجابة سؤال رسول الله ﷺ عن الشجرة:

وأما استحياء ابن عمر من إجابة سؤال رسول الله ﷺ عن الشجرة التى تشبه المسلم ، فإنما كان لصغر سنه بين القوم فهو من حياء التوقير ، ومع ذلك حثه عمر - معلمًا - على الكلام فى حضرة الكبار إذا سكتوا عمًّا سئلوا عنه ولم يعرفوه وأن هذا لا يتنافى مع توقيرهم وإكبارهم .

ففى الصحيحين من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن من الشجر شجرةً لا يسقط ورقها ، وإنها مِثْلُ المسلم فحدِّثونى ماهى؟** » فوقع الناس فى شجر البوادى ، قال عبدالله : ووقع فى نفسى أنها النخلة فاستحييت ثم قالوا : حدِّثنا ما هى يا رسول الله ؟ قال : « **هى النخلة** » ، قال : فذكرت ذلك لعمر ، قال : لأن تكون قلت : هى النخلة ، أحب إلى من كذا وكذا (٣) .

وفى رواية عند البخارى : فأردت أن أقول : هى النخلة ، وأنا غلام شاب فاستحييت ، وفى رواية له أيضا : فأردت أن أقول : هى النخلة فإذا أنا أصغر القوم فَسكَتُّ ، قال : النبى ﷺ : « **هى النخلة** » ، وفى رواية لمسلم : فجعلت أريد أن

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ٢ / ٢١٨ .

(٢) الرسالة القشيرية ٢ / ٤٥٦ ، ومدارج السالكين ٢ / ٢٦٨ .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى : كتاب العلم ، باب قول المحدِّث : حدثنا أو أخبرنا أو أنبأنا ، وباب الفهم فى العلم ، وكتاب الأدب ، باب ما لا يَسْتَحْى من الحق للتفقه فى الدين ، ومسلم : كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب مثل المؤمن مثل النخلة .

أقولها فإذا أسنان القوم فأهاب أن أتكلم فلما سكتوا ، قال رسول الله : « **هى النخلة**» ، وفى رواية له أيضًا : ورأيت أبابكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم وأقول شيئًا ، فقال عمر : لأن تكون قلتها أحب إلىّ من كذا وكذا .

قال النووى : « وفيه توقير الكبار كما فعل ابن عمر ، لكن إذا لم يعرف الكبار المسألة ، فينبغى للصغير الذى يعرفها أن يقولها » (١) .

فتبين بهذا أنه وإن كان ليس من الحياء أن يمتنع الإنسان عن سؤال العالم عما يجهله ، مهما كان المسئول عنه إلا أنه ينبغى أن يكون السائل فى حاجة إلى السؤال حقًا ، وأن يؤدى ذلك بأدب؛ مع مراعاة الحال ، والخصوصيات ، والوقار ، بأن يستخدم الكنايات والتعريضات والإشارات ، فيما لا يصح التصريح به ، خاصة بين الرجل والمرأة ، أو فى حضورها ، تجنبا للحرج ، ودفعًا لما قد يترتب على ذلك من منع العلم ، والاستفتاء فيما تمسُّ الحاجة إليه باسم الحياء ، فالعلم يضيع بين شيئين : الكِبر والحياء (٢) ، وليس هذا حياء حقيقة .

* * *

---

(١) شرح صحيح مسلم ٩ / ١٦٩ .

(٢) سبق قول مجاهد : لا يتعلم العلم مستحى ولا متكبر (أخرجه البخارى فى صحيحه تعليقا : كتاب العلم ، باب الحياء فى العلم) . قال ابن حجر : « وقول مجاهد هذا وصله أبونعيم فى الحلية من طريق على بن المدينى عن ابن عيينة عن منصور عنه ، وهو إسناد صحيح على شرط المصنف » (فتح البارى ١ / ١٨٤) .

الفصل السادس

حياؤه ﷺ وحياء آل بيته وأصحابه رضى الله عنهم

وفيه مباحث :

المبحث الأول : صفة حيائه ﷺ .

المبحث الثانى : نماذج من كمال حيائه ﷺ .

المبحث الثالث : محل وجود الحياء منه ﷺ .

المبحث الرابع : نماذج من حياء آل بيته رضى الله عنهم.

المبحث الخامس : نماذج من حياء أصحابه رضى الله عنهم .

الفصل السادس

حياؤه ﷺ وحياء آل بيته وأصحابه رضى الله عنهم

المبحث الأول : صفة حيائه ﷺ :

كان حياؤه ﷺ من أبرز صفاته الخلقية وأشدها وضوحًا فى ملامح شخصيته، يظهر تارة فى فعله، وتارة أخرى فى تركه، وتارة فى عبارته، وتارة فى إشارته، وتارة فى صمته وسكوته، وتارة فى وجهه، وتارة فى نظرته، وتارة فى إخفاق رأسه، وتارة فى عمله ما لا يلزم شرعًا تحمله، وهكذا . . حتى كان مجلسه مجلس حلم وحياء .

ولم يكن حياؤه ﷺ من مجرد ما يستحيى منه أهل الحياء من البشر؛ بل كان يتخطى ذلك إلى مراحل بعيدة، حتى يستحيى من فعل ما هو خلاف الأولى فى أخلاق المرسلين مما لا يترتب عليه محاسبة ولا معاتبة إلا من نفس كاملة .

ولذلك لم يكن لحيائه ﷺ حد يقف عنده، ولا وصف يمكن أن يصل إلى كنهه وحقيقته . ومفردات هذا الخلق كغيره ـ فى كتب السنة كثيرة جدًا ـ نذكر منها ما يفى بغرض التعلم والاقتداء دون حصر لها أو استقصاء .

وأبدأ بهذا الوصف العام الجامع لحيائه ﷺ، والذى يمكن أن يكتفى به عند الإجمال والضرورة ليعكس فى النفس الحية صورة صادقة ناطقة بحيائه ﷺ تغنى عن كثير من الوصف والتفصيل .

فقد روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما فى صفة حيائه ﷺ عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياء من العذراء فى خِدْرها (١) .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى : كتاب الأدب ، باب الحياء ، ومسلم : كتاب الفضائل ، باب كثرة حيائه ﷺ .

العذراء : البكر لبقاء عذريتها ، أى : بكارتها .

والخِدر : الستر يكون لها فى ناحية البيت أو جانبه(١) .

قال ابن حجر : « لأن العذراء فى الخلوة يشتد حياؤها»(٢) .

لكن هل تكون العذراء فى سترها شديدة الحياء ، وليس ثمة ما تستحيى منه؟ الواقع لا يؤيد هذا . . فهى أشد حياء مع لقاء الناس والخروج إليهم ، والتحدث معهم . . وغير ذلك؛ إذًا المعنى غير منضبط . . فالأولى أن يقيد هذا المعنى ، بتقييد الخلوة فليس ذلك منها فى الخلوة المطلقة ، بل فى الخلوة التى تنتظر فيها دخول الزوج عليها أول مرة ، وهذه هى أشد حالات البكر حياء وخجلاً . . ولا عبرة بشاذة خلعت برقع الحياء عن وجهها وقلبها ، والمعنى : أنه ﷺ كان أشد حياء من العذراء فى سترها حين دخول الزوج عليها هذا الستر أول مرة ، ويترتب على هذا المعنى أنه لم يكن فى البشر من عنده حياء كحياء سيد الأنبياء ﷺ .

فكيف يفهم هذا المعنى؟

لأن الجنس البشرى رجل وامرأة ، والمرأة أكثر وأشد حياء من الرجل قطعًا ، هذا فى الأصل والغالب ، لكن كما نرى بعض النساء فى هذا العصر تفعل وتقول ما يستحيى منه الرجال ! ! فهذه امرأة شاذة أيًا كان موقعها .

والمهم أن المرأة فى الأصل أشد حياء من الرجل ، والبنت البكر أشد حياء من المرأة عمومًا (٣) ، والبنت البكر حين دخول زوجها عليها أشد حياء من الجميع .

---

(١) شرح النووى على صحيح مسلم ٨ / ٨٦ .

(٢) فتح البارى ٦ / ٤٥٠ .

(٣) ولذلك قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : يا رسول الله إن البكر تستحى ـ أى : إذا استؤذنت فى النكاح ـ، قال ﷺ : « رضاها صمتها » . (متفق عليه . أخرجه البخارى : كتاب النكاح ، باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها ، ومسلم : كتاب النكاح ، باب استئذان الثيب فى النكاح بالنطق والبكر بالسكوت) .

وهذا الحياء الشديد بهذه الصفة طارئ عليها سرعان ما يزول، ولكن حياء الرسول ﷺ - مع كونه أشد من حياء مَنْ هو بهذه الصفة - كان ثابتًا، دائمًا، تامًا، لازمًا فى كل ما يفعل ويقول ويأتى ويذر!!

وهذا هو معنى وصفه ﷺ أنه كان أشد حياء من العذراء فى خدرها.

وزاد مسلم فى روايته: وكان إذا كره شيئًا عرفناهُ فى وجهه.

والمعنى: أنه ﷺ كان إذا رأى شيئًا يكرهه - أى: طبعًا لا شرعًا - لا يتكلم به لحيائه، بل يتغير وجهه فيفهم كراهته له من وجهه الشريف. وذلك لأن كمال حيائه قد بلغ به إلى أنه لم يكن يواجه أحدًا بشىء يكرهه أو بما يكره!! بل يعرِّض بذلك تارة، فيقول: ما بال أقوام يصنعون كذا أو يقولون كذا وكذا؟! ينهى عنه ولا يسمِّى فاعله احترازًا عن المواجهة بالمكروه مع حصول المقصود بدونه.

أو يأمر بعض أصحابه أن يوجه الرجل المقصر فى شىء برفق وسرية تارة أخرى، وذلك لشدة حيائه وكرم نفسه، ففى الصحيحين(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت: صنع النبى ﷺ شيئًا فرخَّصَ فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبى ﷺ فخطب فحمد الله ثم قال: « **ما بال أقوام يتنزهون عن الشىء أصنعه، فوالله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية** »، وفى رواية لمسلم: « **ما بال رجال ...** »، وقد ترجم البخارى للحديث بباب « من لم يواجه الناس بالعتاب » قال ابن حجر: «أى: حياء منهم»(٢). قلت: ومحل ذلك أنه لم يميز الذى صدر منه الفعل سترًا عليه مع توجيهه إلى الصواب.

وقد روى أبو داود فى سننه والبيهقى فى دلائل النبوة عن عائشة رضى الله عنها

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى: كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، ومسلم: كتاب الفضائل، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته.

(٢) فتح البارى ١٠ / ٤٢١.

قالت : كان النبى ﷺ إذا بلغه عن الرجل الشىء لم يقل : ما بال فلان يقول ، ولكن يقول : «**ما بال أقوام يقولون كذا وكذا ؟!**» [١].

ورويا بسنديهما أيضًا ، والترمذى فى الشمائل وغيرهم بسند ضعيف عن أنس بن مالك : أن رجلاً دخل على رسول الله ﷺ وعليه أثر صفرة [٢]، وكان رسول الله ﷺ قلّما يواجه رجلاً فى وجهه بشىء يكرهُه ، فلما خرج قال : «**لو أمرتم هذا أن يغسل ذا عنه**» [٣].

ومع أن هذا أمر يمكن التوجيه فيه خاصة من الأعلى للأدنى إلا أنه استحيا منه ، ووكله لأصحابه فربما كان فيهم من لا يسبب توجيهه حرجًا للرجل .

وإذا نظرنا إلى واقع الناس اليوم وما يتعاملون به من ألفاظ فى حياتهم اليومية فى ضوء هذا الحياء الراقى لاتضح بُعد كثير منهم عن هذا المنهج النبوى الكريم ، فمن الناس من يواجهك بما تكره بمجرد أن يرى وجهك كأن يقول لك بلا حياء : ما هذه الصُّفْرة التى فى وجهك اليوم ؟ أو هل أنت مريض؟ أو ما هذا الهزال الذى أصابك؟ وربما يتدخل فى ملابسك وهيئتك ومشيتك وعملك بالنقد والتجريح وهلم جراً . . .

وكل هذا من قلة الحياء والبعد عن الاقتداء بسيد الأنبياء ﷺ . . .

---

(١) أخرجه أبو داود : كتاب الأدب ، باب فى حسن العشرة ، والبيهقى فى (دلائل النبوة ١ / ٣١٨)، وصححه الألبانى (الصحيحة برقم ٢٠٦٤) ، و(صحيح سنن أبى داود برقم ٤٧٨٨) و (صحيح الجامع ٤٦٩٢) .

(٢) أثر صُفْرة : أى على جسده أو على ثوبه أثر الزعفران .

(٣) أخرجه أبو داود : الموضع السابق ، والبيهقى فى دلائل النبوة ١ / ٣١٧ ، والترمذى فى « الشمائل المحمدية » : باب ما جاء فى خلق رسول الله ﷺ ، وضعفه الحافظ العراقى (المغنى عن حمل الأسفار على هامش الإحياء ٢ / ٩٥٨) .

المبحث الثاني : نماذج من كمال حيائه ﷺ :

ومن كمال حيائه ﷺ : أنه كان لا يثبت بصره في وجه أحد، ويكنى عما اضطره الكلام إليه مما يكره[(١)].

ومن كمال حيائه ﷺ : أنه ما عاب طعامًا قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه أو يسكت[(٢)].

ومن كمال حيائه ﷺ : أنه كان إذا ذهب المذهب[(٣)] أبعد[(٤)]. أي: إذا أراد قضاء حاجته ـ بولاً أو غائطًا ـ (ولم تكن الكُنُف في البيوت) طلب البعد عن الناس حفظًا لكرامتهم وبعدًا للأذى عنهم وصونًا لعورته. وفي رواية لأبي داود وغيره عن جابر أن النبي ﷺ كان إذا أراد البراز[(٥)] انطلق حتى لا يراه أحد[(٦)].

ومن كمال حيائه ﷺ : أنه كان إذا أراد الحاجة لم يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض[(٧)]، أي: ما كان يرفع ثوبه مرة واحدة بل شيئًا فشيئًا مبالغة في دوام الستر استحياء من الله[(٨)].

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ، للقاضي عياض ص ٧٨ .

(٢) متفق عليه عن أبي هريرة . أخرجه البخاري : كتاب المناقب ، باب صفة النبي ﷺ ، ومسلم : كتاب الأشربة ، باب لا يعيب طعامًا .

(٣) المذهب : اسم لموضع التغوط كالخلاء .

(٤) أخرجه أبو داود في سننه : كتاب الطهارة ، باب التخلي عند قضاء الحاجة ، والترمذي في سننه : أبواب الطهارة ، باب ما جاء أن النبي ﷺ كان إذا أراد الحاجة أبعد في المذهب ، وقال : «حسن صحيح» ، والحاكم وصححه على شرط مسلم (المستدرك ١ / ٢٢٣) ووافقه الذهبي .

(٥) البراز : اسم للفضاء الواسع من الأرض ، كنوا به عن الحاجة للإنسان كما كنوا بالخلاء عنه .

(٦) أخرجه أبو داود : كتاب الطهارة ، باب التخلي عند قضاء الحاجة ، وصححه محققوه .

(٧) أخرجه أبو داود في سننه : كتاب الطهارة ، باب كيف التكشف عند الحاجة ، والترمذي في سننه : أبواب الطهارة ، باب ما جاء في الاستتار عند الحاجة عن أنس وابن عمر ، وصححه الألباني (صحيح الجامع برقم ٤٦٥٢) ، قال الدارمي : « هو أدب ، وهو أشبه من حديث المغيرة » (سنن الدارمي : كتاب الطهارة ، باب النهي عن استقبال القبلة بغائط أو بول) .

(٨) فأي حياء لهؤلاء الذين يكشفون عوراتهم أمام الناس في الشوارع أو في المصائف أو في الحرام ؟! نسأل الله العفو .

ومن كمال حيائه ﷺ : أنه ما رأى أحد عورته قط لشدة محافظته واحتياطه للتستر فى أحواله المختلفة .

فقد أخرج البزار من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يغتسل من وراء الحجرات ، وما رأى أحد عورته قط [١] .

ومن كمال حيائه ﷺ : أنه ما كان يكشف عورته أمام زوجته . فعن عائشة رضى الله عنها قالت : ما نظرت أو ما رأيت فرج رسول الله ﷺ قط [٢] .

فكشف العورة أمام الزوجة وإن كان مباحًا إلا أن شدة الحياء قد تمنع الإنسان من بعض المباحات التى لا يلام فاعلها أو تاركها ، إلا أن تركها من أهل الكمال أوفق وأليق .

ومن كمال حيائه ﷺ : أنه لم يكن فاحشًا ـ فى أقواله وأفعاله وصفاته ـ ولا متفحشًا [٣] ـ متكلفًا الفحش ، ولا سبَّابًا ولا لعَّانًا [٤] ، ولا سخَّابًا [٥] في الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح [٦] . ويكتفى عند المعتبة لأحدهم بقوله :

---

(١) أخرجه البزار فى « مسنده» (١١ / ١٩٧ برقم ٤٩٤٥) من حديث ابن عباس ، وقال ابن حجر فى « فتح البارى» (٦ / ٤٥٠) : «وإسناده حسن » ، وقال الهيثمى فى « مجمع الزوائد» (٩ / ٢٠) : « رجاله ثقات » .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه : كتاب الطهارة ، باب النهى أن يرى عورة أخيه وضعفه البوصيرى (إتحاف الخيرة المهرة ٤ / ٥٨) ، وقال السيوطى جمعا بين هذا الحديث ، وما روى من أن أهله كانوا يرون عورته : « ليس هذا مطردًا فى كل نسائه ، ولا كان ممنوعًا عليهن» (هامش سنن ابن ماجه ١ / ٢٧٠) .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى : كتاب المناقب ، باب صفة النبى ﷺ ، ومسلم : كتاب الفضائل ، باب كثرة حيائه ﷺ ، من حديث عبد الله بن عمرو .

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه : كتاب الأدب ، باب لم يكن النبى ﷺ فاحشًا ولا متفاحشًا ، عن أنس .

(٥) السخب والصخب بمعنًى وهو الصياح والجلبة (لسان العرب . مادة : سَخَبَ ، صخب) .

(٦) أخرجه البخارى فى صحيحه : كتاب التفسير ـ سورة الفتح ـ ، باب ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما .

« **ما له ترب جبينه** »[1] أى : أصابه التراب[2]، ومحل هذا فيما يتسامح فيه ، أما محارم الشرع فكان يغضب لها ويأمر وينهى .

ومن كمال حيائه ﷺ : أنه ما ضرب شيئًا قط بيده ولا امرأة ولا خادمًا إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، وما نيل منه شىء قط فينتقم من صاحبه ـ أى : لا ينتقم لنفسه ـ إلا أن يُنتهك شىء من محارم الله تعالى فينتقم لله عز وجل[3] .

وهذا فعل أهل الكمال والمروءة من الرجال أيضًا ، فلا يضربون نساءهم ولا خدمهم ولا من تحت أيديهم ، ويكتفون فى المعاقبة بعبارة أو نظرة أو إشارة ، ويكون لها من الأثر فى التوجيه والإصلاح ما لا يصل إليه أثر الضرب فى زمن قريب أو بعيد ، لكن هذا يختلف أيضًا باختلاف البيئة والسن وطبيعة الأشخاص ، فما يصلح لإنسان قد لا يصلح لغيره ، وكلما كانت وسيلة الإصلاح والتربية بما هو أقل فى الإيلام والتعنيف ، وأبلغ فى الزجر والأثر ، كان النفع أتم والحياء أكمل .

ومن كمال حيائه ﷺ : أنه كان لا يُسأل عن شىء إلا أعطاه . يقول جابر رضي الله عنه ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قط ، فقال : لا[4]، ويقول أنس رضي الله عنه : ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه[5] ، وهذا من شدة حيائه ﷺ وكرم نفسه .

---

(١) أخرجه البخارى : كتاب الأدب ، باب لم يكن النبى ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا ، وباب ما ينهى من السباب واللعن ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) والمعنى : سقط جبينه للأرض أو خرَّ لوجهه ، وهى كلمة استعملها العرب تجرى على اللسان ولا يراد حقيقتها ، وقيل : المراد بها الدعاء له بكثرة السجود فيترب جبينه ، وهذا بعيد . لا يدل عليه السياق ولا الواقع لأن العرب كانت تقولها قبل معرفة الصلاة ، فالمعنى الأول هو الصحيح ، والمراد بذلك : الحث على فعل الشىء ، والترغيب فى استعماله (لسان العرب . مادة : ترب وفتح البارى ١٠ / ٣٧٢) .

(٣) أخرجه مسلم : كتاب الفضائل ، باب مباعدته ﷺ للآثام ، عن عائشة رضى الله عنها .

(٤ ، ٥) أخرجهما مسلم فى صحيحه : كتاب الفضائل ، باب ماسئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال : لا ، وكثرة عطائه .

ومن كمال حيائه وبالغه ﷺ : استحياؤه من ربه ليلة المعراج من كثرة تردده عليه لتخفيف الصلاة عن أمته ، بإشارة موسى ـ عليه السلام ـ .

ففى الصحيحين [(١)] من حديث أنس رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : « **ففرض الله على أمتى خمسين صلاة ، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى ، فقال : ما فرض الله على أمتك ؟ قلت : فرض خمسين صلاة ، قال : فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك** ... » فراجع ربه مرات إلى أن قال الله له : « **هى خمس وهى خمسون** [(٢)] **لا يبدل القول لدى قال : فرجعت إلى موسى ، فقال :راجع ربك ، فقلت :قد استحييت من ربى** » .

وقد كان حياؤه ﷺ هنا لاستشعاره الإلزام بما بقى من الصلوات بقوله تعالى : « **لا يبدَّلُ القول لدى** » ، مع قدرة أمته على القيام بها ـ بعد التخفيف ـ دون حرج أو مشقة ، وخشيته ﷺ من رفعها كلية إذا لم يعد منها إلا خمسًا ، وكان التخفيف يقع خمسًا خمسًا كما صرحت به بعض الروايات المعتمدة [(٣)] ، فإن عاد يسأل التخفيف منها ؛ فكأنه يطلب رفع هذه المنحة العظيمة التى تفضل الله بها عليه وعلى أمته فى تلك الليلة ، وبالغ حيائه يمنعه من مجرد التفكير فى طلب ذلك كما لا يخفى .

كما أن من كمال حيائه أنه لم يراجع ربه فى كل مرات المراجعة إلا بإشارة موسى ـ عليه السلام ـ فتأمله .

هذا وحياؤه ﷺ لا حدَّ له ، ومفرداته لا تنحصر ، مما يطول بذكره الكلام جدًا ، وكثير مما جاء فى أوصاف أخلاقه الأخرى كالرفق والحلم

---

(١) أخرجه البخارى : كتاب الصلاة ، باب كيف فرضت الصلوات فى الإسراء ، ومسلم : كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات .

(٢) أى : خمس فى الفعل ، وخمسون فى الثواب (فتح البارى ١ / ٣٦٨) .

(٣) فتح البارى ١ / ٣٦٧ .

والتواضع والعفو والصفح، وحسن العشرة، والصدق، والإغضاء وغير ذلك تشترك فيه صفة الحياء ويصلح لأن يكون من شواهدها.

المبحث الثالث: محل وجود الحياء منه ﷺ:

ومحل وجود الحياء منه ﷺ في غير حد من حدود الله، أو انتهاك حرمة من حرماته فلا يمنعه الحياء من إقامة حد، ولا من الغضب والانتقام لله لانتهاك حرمة، ولا من التوجيه والتقويم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وغير ذلك مما يُقام به قانون الشرع وتستقر به قواعد الشريعة.

ففى الحديث المتفق عليه عن عائشة رضى الله عنها قالت: ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه فى شىء قط إلا أن تُنتهك حُرمة الله، فينتقم لله تعالى[(١)].

ولما أهمَّ قريشًا شأنُ امرأة منهم ـ مخزومية ـ سرقت فقالوا: من يكلمُ فيها رسول الله ﷺ؟ ومن يجترئُ عليه إلا أسامةُ بن زيد حبُّ رسول الله ﷺ؟ فلما كلمه أسامة تلون وجهه ﷺ قائلاً: **«أتشفع فى حد من حدود الله؟!»**، فقال أسامة ـ مستشعرا خطأه فورًا من شدة غضبه ﷺ، وأثر ذلك فى وجهه وصوته ـ: استغفر لى يا رسول الله، ثم قام رسول الله ﷺ فخطب قائلاً بعد أن أثنى على الله بما هو أهله: **«أما بعد، فإنما أهلك الذين من قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف، أقاموا عليه الحد، وإني والذى نفسى بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يَدَها»** ثم أمر بتلك المرأة فقُطعت يدُها[(٢)].

---

(١) أخرجه البخارى: كتاب الحدود، باب إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله، ومسلم: كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله...

(٢) متفق عليه عن عائشة رضى الله عنها. أخرجه البخارى: كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة فى الحد إذا رفع إلى السلطان، ومسلم: كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، والنهى عن الشفاعة فى الحدود، واللفظ له.

فلم يمنعه حياؤه الشديد ﷺ ، من رد شفاعه أسامة ، وإظهار غضبه مما جاء به ، وبيان الحق له ، وعدم إجابته مع مكانته منه ، وإقامة حد الله على المرأة ، إذ لا حياء فى ذلك . . بل هو أمر مذموم خارج عن حد الحياء الحق إلى الضعف والمهانة ، وقد كان رسول الله أكمل الناس وأعدلهم حياء ، وما فعله هو الحياء من الله حقًا .

أما امتناعه ﷺ من أن يخرج أولئك النفر الثلاثة من أصحابه الذين استرسل بهم الحديث فى بيته بعد أن طعموا من وليمته على زواجه بزينب رضى الله عنها (١) فضيقوا عليه وعلى أهله ، فقد كان من حياء الكرم ، لأنهم كانوا فى بيته ، فلم يستطع أن يخرجهم منه لشدة حيائه ﷺ ، ولتعارض هذا ظاهرًا مع صفات الكرم والجود والاحتمال ، فغلبت هذه الصفات عليه فآثر الاحتمال والصبر وليس هذا من الحياء المذموم بل هو مما يؤجر الإنسان عليه إن احتمله ؛ لأن شدة الحياء تمنع الحيى من بعض الأفعال التى تسبب لغيره حرجًا شديدًا ، وليس فيها حق للشرع ، ويفهم من ظاهرها ما يتنافى مع صفات أخلاقية أخرى فيترك الأولى لذلك ، وهذا إن جاز فى حق البشر وإن كانوا أنبياء فإنه لا يجوز فى حق الله تعالى ، ولذلك قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ (٢) . أى : لا يمتنع منه ولا يأمر بالحياء فيه ولا يتركه ترك الحيى منكم فلذا أمركم بالخروج .

المبحث الرابع : نماذج من حياء آل بيته رضى الله عنهم :

لاشك أن أكثر الناس تأثرًا بحياء رسول الله ﷺ واقتداء به ، هم أقربهم إليه ،

---

(١) قصة ذلك مفصلة فى البخارى ومسلم وكتب التفسير وأسباب النزول ؛ فى مواضع تفسير الآية . صحيح البخارى : كتاب التفسير ـ سورة الأحزاب ـ ، باب قوله : ﴿لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ . . .﴾ الآية ، وصحيح مسلم : كتاب النكاح ، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب ، من حديث أنس) .

(٢) سورة الأحزاب : ٥٣ .

وأكثرهم تمسكًا بهديه وأخلاقه . . وأشد الناس قربًا من رسول الله ﷺ أهل بيته الأطهار ، ومواقفهم فى الحياء كثيرة ومؤثرة فى النفس أبلغ تأثير ، وقد فاضت بها الأخبار والآثار . . نكتفى بذكر نماذج منها :

حياء السيدة فاطمة رضى الله عنها :

فعن أسماء بنت عميس رضى الله عنها قالت : لما أهديت فاطمة إلى على بن أبى طالب ، لم نجد فى بيته إلا رملاً مبسوطًا ، ووسادة حشوها ليف ، وجرة ، وكوزًا ، فأرسل رسول الله ﷺ «**لاتُحْدِثن حدثا ، أو قال : لا تقربن أهلك حتى آتيك** » ، فجاء النبى ﷺ فقال : « **أثم أخى ؟** » ، فقالت أم أيمن ـ وهى أم أسامة بن زيد وكانت حبشية وكانت امرأة صالحة ـ : يا رسول الله ، هذا أخوك وزوجته ابنتك ؟! وكان النبى ﷺ آخى بين أصحابه ، وآخى بين على ونفسه ، قال : « **إن ذلك يكون يا أم أيمن** » قالت : فدعا النبى ﷺ بإناء فيه ماء ، ثم قال ما شاء الله أن يقول ، ثم مسح صدر علىٍّ ووجهه ، ثم دعا فاطمة فقامت إليه فاطمة تعثر فى مرطها (١) من الحياء ، فنضح عليها من ذلك ، وقال لها ما شاء الله أن يقول ، ثم قال لها : « **أما إنى لم آلك أن أنكحتك أحب أهلى إلى** » ثم رأى سوادًا من وراء الستر ، أو من وراء الباب فقال : « **من هذا ؟** » ، قالت : أسماء ، قال : « **أسماء بنت عميس** » قالت : نعم يا رسول الله قال : « **أجئت كرامة لرسول الله ﷺ مع ابنته ؟** » قالت : نعم إن الفتاة ليلة يبنى بها لابد لها من امرأة تكون قريبة منها إن عرضت لها حاجة أفضت ذلك إليها ، قالت : فدعا لى بدعاء إنه لأوثق عملى عندى ثم قال لعلى : « **دونك أهلك** » ثم خرج فولى ، فما زال يدعو لهما حتى توارى فى حجره (٢) .

---

(١) المرْطُ : كساء من خَزٍّ أو صوف أو كتان ، غير مخيط ، يؤتزر به ، وتتلفع به المرأة (لسان العرب . مادة : مرط) .

(٢) أخرجه عبد الرزاق فى «المصنف » : كتاب المغازى ، باب تزويج فاطمة رحمة الله عليها ، وقال الهيثمى : « رجاله رجال الصحيح » (مجمع الزوائد ٩ / ٢١٢) .

ولما مرضت رضى الله عنها مرضها الذى توفيت فيه . . دخلت عليها أسماء بنت عميس رضى الله عنها تعودها وتزورها ، فقالت فاطمة لأسماء : والله إنى لأستحيى أن أخرج غداً ـ أى : إذا مت ـ على الرجال جسمى من خلال هذا النعش ـ وكانت النعوش آنذاك عبارة عن خشبة مصفحة يوضع عليها الميت ، ثم يطرح على الجثة ثوب ، فكان يصف الجسم ـ فقالت لها أسماء : أولاً نصنع لك شيئا رأيته بالحبشة ؟ فصنعت لها النعش المغطى ، إذ دعت بجرائد رطبة فحنتها ثم طرحت عليها ثوبا فقالت فاطمة رضى الله عنها : سترك الله كما سترتينى [1] .

قال ابن عبد البر : «فاطمة رضى الله عنها أول من غطى نعشها من النساء فى الإسلام على الصفة المذكورة فى هذا الخبر » [2] .

حياء السيدة عائشة رضى الله عنها :

وللسيدة عائشة مواقف كثيرة تفيض بالحياء إلا أننى توقفت طويلاً أمام مشهد لها يعكس فى القلب ما تحقق فيها من كمال الحياء والأدب ، ويغنى عن كثير من الكلام والمواقف .

وهو ما رواه الإمام أحمد أن السيدة عائشة رضى الله عنها كانت تدخل حجرتها أو بيتها بعد دفن رسول الله ﷺ وأبى بكر فيها فتضع ثيابها وتقول : إنما هو زوجى وأبى ، فلما دفن عمر معهما قالت : فوالله ما دخلته إلا وأنا مشدودة علىّ ثيابى حياء من عمر [3] .

---

(١) أخرجه أبونعيم فى « حلية الأولياء » (٢ / ٤٣) ، وذكره الحافظ الذهبى فى « سير أعلام النبلاء » (٢ / ١٣١ ، ١٣٢) ، وحسنه فى « أحاديث مختارة» (ص ٦١) .

(٢) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب على هامش الإصابة ٤ / ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى « المسند» (١٨ / ٢٤ ، ٢٥) وقال الهيثمى : «رجاله رجال الصحيح » (مجمع الزوائد ٩ / ٤٠) .

أي : تستحيى من عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو فى قبره وتتعامل معه ميتًا وهو تحت أطباق الثرى . . كما تتعامل معه حيًا .

وفى هذا من المعانى كمراعاة حرمة الأموات والتأدب معهم ، والحياء منهم ما نحن فى حاجة ماسة إليه فى عصرنا .

فكثير من الناس ليس عندهم هذا الحس الراقى فى التعامل مع الأموات فتراهم بين القبور يأكلون، ويشربون، ويضحكون ، ويرفعون أصواتهم باللغو والباطل ولا يتعظون . بل منهم من يرتكب المحرمات، فيدخن أو ينظر إلى امرأة أجنبية أو يجالسها أو يسمع الغناء (١) ، ومنهم من يزيد على ذلك والعياذ بالله .

ومن النساء من تخرج إلى المقابر متبرجة متعطرة إلى آخر ذلك من المنكرات والآثام التى تدل على موت القلوب وتحجرها وتجردها من الحياء والأدب ومراعاة حرمة الأموات . . ورضى الله عن سيدنا عثمان ما وقف على قبر إلا بكى حتى يبل لحيته .

فقد روى الترمذى فى سننه وحسنه عن هانئ مولى عثمان رضى الله عنه قال : كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يَبُلَّ لحيَتَهُ ، فقيل له : تذكرُ الجنة والنار فلا تبكى وتبكى من هذا ؟! فقال : إن رسول الله ﷺ قال : « **إن القبر أولُ منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعدَه أيسرُ منه ، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشد منه** » قال : وقال رسول الله ﷺ : « **ما رأيت منظراً قطُّ إلا القبرُ أفظعُ منه** » (٢) .

---

(١) كنت فى زيارة للقبور وفى الطريق بينها سمعت صوت مسجل يصدر منه غناء هابط ووجدت رجلاً بناء يبنى قبرًا وفى يده سيجارة وهو يسمع هذا العبث ويردده!! وهالنى ما رأيت وسألته فى حديث لى معه عن صلاته فقال: إنه لا يصلى ، فازداد عجبى من بنّاء القبور هذا، ونصحته كثيراً فما زاد عن أن هز رأسه وغمغم، نسأل الله الهداية، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

(٢) أخرجه الترمذى : كتاب الزهد ، باب ما جاء فى ذكر الموت ، وقال : « حسن غريب » .

حياء الإمام على رضى الله عنه :

كانت للإمام على فى الحياء مواقف مشهورة منها : استحياؤه من سؤال رسول الله ﷺ عن المذى حشمة لمكان ابنته منه كما سبق ، وهذا وإن كان يدل على شدة حيائه ، واحترازه مما لا يحترز منه أكثر الناس ، إلا أن له فى الحياء مواقف أخرى قد لا يفطن إلى الحياء فيها أحد . . لخفائه فيها ، والتباسه بما يغلب عليه ويغطيه حتى لا يظهر معه .

فقد أخرج الإمام الطبرى فى تفسيره عن السدى قال : لما برز رسول الله ﷺ إلى المشركين بأحد ، أمر الرماة ، فقاموا بأصل الجبل فى وجوه خيل المشركين ، وقال : **« لا تبرحوا مكانكم إن رأيتمونا قد هزمناهم ، فإنا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم »** وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير أخا خوَّات بن جبير ، ثم إن طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين قام فقال : يا معشر أصحاب محمد ، إنكم تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار ، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة ، فهل منكم أحد يعجله الله بسيفى إلى الجنة ، أو يعجلنى بسيفه إلى النار ؟ فقام إليه على بن أبى طالب ، فقال : والذى نفسى بيده ، لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفى إلى النار ، أو يعجلنى بسيفك إلى الجنة ، فضربه على فقطع رجله فسقط ، فانكشفت عورته ، فقال : أنشدك الله والرحم يا ابن عم ! فتركه فكبَّر رسول الله ﷺ ، وقال لعلى أصحابه : ما منعك أن تجهز عليه ؟! قال : إن ابن عمى ناشدنى حين انكشفت عورته فاستحييت منه(١) .

فهذا يعكس شدة حيائه رضى الله عنه فى مراعاته لحرمة عدوه حتى غلب ذلك عليه ، فحال بينه وبين قتله ، وإن كان العدو فى حال قتال ومحاربة تسقط حرمته . وقد تكرر هذا منه رضى الله عنه فى غزوة الخندق ، فى قصة مبارزته لعمرو بن عبد وُدٍّ وقتله له . . ثم أقبل نحو رسول الله ﷺ ووجهه يتهلل ، فقال عمر بن

---

(١) تفسير الطبرى ٣/ ٢٠٠٥ .

الخطاب رضى الله عنه : هلا استلبته درعه ، فإنه ليس للعرب درع خير منها ، فقال : ضربته فاتقانى بسواده ـ وفى رواية : بسوأته [١] فاستحييت ابن عمى أن أستلبه[٢] . فهذا من حياء ورعه وعفته رضى الله عنه .

المبحث الخامس : نماذج من حياء أصحابه رضى الله عنهم :

وهذا باب واسع أيضًا، يكفى منه عرض أنموذج أو أنموذجين مما يفى بالغرض ، فممن اشتهر بالحياء بين الصحابة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه الذى قال عنه رسول الله ﷺ : « **الحياء من الإيمان ، وأحيا أمتى عثمان** » [٣] والذى بلغ من شدة حيائه أن الملائكة كانت تستحيى منه . فقد قال ﷺ : « **ألا أستحيى من رجل تستحيى منه الملائكة ؟!** » [٤] .

---

(١) « المستدرك » (٣ / ٣٨) .

(٢) أخرجه البيهقى فى «السنن الكبرى» (٦ / ٥٠٢) ، و« دلائل النبوة » (٣ / ٤٣٨ ، ٤٣٩) .

(٣) أخرجه ـ بنحوه ـ ابن عساكر فى « تاريخ دمشق » (١٣ / ٣٦٥) ، وصححه الألبانى (الصحيحة برقم ١٨٢٨) .

(٤) قصته فى صحيح مسلم : أنه ﷺ كان مضطجعًا فى بيت عائشة رضى الله عنها كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه فأستأذن أبوبكر رضي الله عنه فأذن له وهو على تلك الحال ، ثم استأذن عمر رضي الله عنه فأذن له وهو كذلك ، ثم استأذن عثمان رضي الله عنه فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه . . فلما سألت عائشة رضى الله عنها رسول الله ﷺ عن ذلك قال : « **ألا أستحيى من رجل تستحيى منه الملائكة ؟** » . وما جاء فى الرواية من أنه ﷺ كان كاشفا عن فخذيه ليس مسلما ، لشك الراوى : فخذيه أو ساقيه (صحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عثمان بن عفان) ، والثانى هو الأليق بمقام الحضرة النبوية ويقوى ذلك ما جاء فى بعض الروايات عند الطبرانى وغيره كاشفا عن ركبته فتأمله ، أما ما روى فى الصحيحين من انحسار الإزار عن فخذه ﷺ فى غزوة خيبر ، وقول أنس رضى الله عنه : « وإنى لأرى بياض فخذ النبى ﷺ » فمحمول على أنه انحسر بغير اختياره لضرورة الإغارة وسوق مركوبه وغير ذلك ، وقول أنس محمول على أنه رآه فجأة لا تعمدًا ، ورواية البخارى « حسر » محمولة على رواية مسلم « انحسر » ، وذلك توفيقا بين هذا وبين ما روى من أحاديث أخرى كثيرة صرحت بأن الفخذ عورة ، وهو ما عليه أكثر الأئمة والعلماء . (صحيح البخارى : كتاب الصلاة ، باب ما يذكر فى الفخذ ، وصحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة خيبر ، وفتح البارى ١ / ٣٨٠ ـ ٣٨٢ ، وشرح النووى على صحيح مسلم ٦ / ٤٠٧) .

وفى رواية قال: «**إن عثمان رجل حييٌّ وإنى خشيت إن أذنت له على تلك الحال ـ وكان الرسول مضجعًا على فراشه فلما استأذن عثمان جلس ـ أن لا يبلغ إلىَّ فى حاجته**» (١).

لقد بلغ من شدة حيائه رضي الله عنه أن يمنعه الحياء من أن يضع ثوبه فى بيته ليفيض عليه الماء والباب عليه مغلق، بل يمنعه الحياء أن يقيم صلبه(٢).

وهكذا كان أبو موسى رضي الله عنه يفعل ويقول: إنى لأغتسل فى البيت المظلم فما أقيم صلبى حتى آخذ ثوبى حياء من ربى عز وجل(٣).

وهكذا كان عثمان بن مظعون رضي الله عنه شديد الحياء.. حتى ذهب يومًا إلى النبى ﷺ قائلاً: إنى لا أحب أن ترى امرأتى عورتى... فلما أدبر قال رسول الله ﷺ: «**إن ابن مظعون لحيى ستير**» (٤).

وهذا هو الحياء فى أسمى معانيه ومنازله، الحياء فى الخلوة كما فى الجلوة، لأنه أولاً: حياء من الله عز وجل، وهو أحق أن يستحيا منه كما قال رسول الله ﷺ، فعن بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جدِّه ـ معاوية بن حَيْدة ـ قال: قلت يا رسول الله، عوراتُنا ما نأتى منها وما نذر؟ قال: «**احفظ عورتك إلا من زوجتك أو مماملكت**

---

(١) صحيح مسلم: الموضع السابق.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١ / ٧٤) عن الحسن رضى الله عنه، وقال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٩ / ٨٥): «رجاله ثقات»، وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة فى «المصنف»: كتاب الطهارة، باب من كره أن ترى عورته، وأبو نعيم فى «حلية الأولياء» (١ / ٢٦٠).

(٤) أخرجه عبد الرزاق فى «المصنف»: كتاب النكاح، باب القول عند الجماع وكيف يصنع وفضل الجماع، وقال الهيثمى: «فيه يحيى بن العلاء، وهو متروك» (مجمع الزوائد ٤ / ٢٩٧).

يمينك » فقال : الرجل يكون مع الرجل ؟ قال : « **إن استطعت أن لا يراها أحد فافعل** » قلت : والرجل يكون خاليا قال : « **فالله أحق أن يستحيا منه** » (١) .

وثانيا : حياء من الملائكة والجن ، فالمكان لا يخلو منهم ؛ وإن خلا من الآدميين ، ولذلك قال ﷺ : « **إياكم والتعرِّى ؛ فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط ، وحين يُفْضى الرجل إلى أهله ، فاستحيوهم وأكرموهم** » (٢) .

قال أبوبكر بن العربى : « يعنى بقوله : (**معكم من لا يفارقكم**) : نصٌّ فى الملائكة ، محتمل فى مؤمن الجن ، فإن الملائكة تكتب وتحفظ ، والمؤمنون من الجن يطلبون الزاد ويحاولون الفوت ، فإن خلا البيت عن آدمى لم يخل من ملك أو جنى ، وقد سمعت بالمسجد الأقصى من أولى النهى عن ابن عمر أنه كان لا يطأ وفى البيت سنور فضلاً عن غيره »(٣) .

وهذا من حياء الورع ، وهو الذى يكون من بعض المباحات ، وهذه الدرجة وإن كان لا يرتقى إليها إلا من خصهم الله بها ، فتحتها درجات كثيرات ، وكلها منازل فى خلق الحياء ، ولا يمتنع الوصف به عمن نزل فى أى درجة منها ، لكن شتان بين الأولى والأخيرة .

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه : كتاب الأدب ، باب ما جاء فى حفظ العورة ، وحسنه ، وأبو داود : كتاب الحمام ، باب ما جاء فى التعرى ، والحاكم فى «المستدرك» (٤ / ٢٩٦) وصححه ووافقه الذهبى ، وذكره البخارى تعليقًا مجزومًا به (صحيح البخارى : كتاب الغسل ، باب من اغتسل عريانًا وحده فى الخلوة ، ومن تستر فالستر أفضل) ، وصحح إسناده الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى ١ / ٣٠٦) .

(٢) أخرجه الترمذى : كتاب الأدب ، باب ما جاء فى الاستتار عند الجماع ، وقال : « حديث غريب » وضعفه الألبانى (ضعيف الترمذى برقم ٢٨٠٠) ، وصححه الشوكانى بشواهده (نيل الأوطار ٦ / ٢٧٣) .

(٣) عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى ١٠ / ١٨١ .

الفصل السابع

الحياء الحق .. وأسباب اكتسابه .. وعلامات المستحيى

وفيه مباحث :

المبحث الأول : الحياء الحق كما وصفه رسول الله ﷺ.

المبحث الثانى : ما يعينك على التحقق بالحياء الحق.

المبحث الثالث : علاقة ذكر الموت والبلى بالحياء .

المبحث الرابع : أسباب اكتساب الحياء .

المبحث الخامس : علامات المستحيى .

الفصل السابع

الحياء الحق .. وأسباب اكتسابه .. وعلامات المستحيى

المبحث الأول : الحياء الحق كما وصفه رسول الله ﷺ :

فى محاولة معرفة الحياء الحق كان يمكن أن تسود الصفحات ، وتتشعب الأفكار ، وتختلف الآراء ولا يصل أحد إلى كنه حقيقة الحياء من الله حقًا ، لأن البشر مهما أوتى من علم لا يستطيع أن يدرك حقيقة ما يريده الله منه ، وإنما مرد ذلك إلى الوحى ، فإذا بيَّن النبى ﷺ ذلك وأجاب عنه ، فقد أغنى عن كل قول وبيان ، ودل على الحياء الحق بأيسر عبارة وأظهر إشارة وهو قوله ﷺ لأصحابه : **«استحيوا من الله حق الحياء»** ، قالوا : يا رسول الله إنا نستحى والحمد لله ، قال : **«ليس ذاك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، ولتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»** (١) .

شرح الحديث:

استوقفنى هذا الحديث فى فهمه ومعرفة معناه ؛ وذلك لأنه استوعب جميع الأحكام الخاصة بالإنسان ، واشتمل على عدة وصايا ، كل وصية منها تحمل بين طياتها ما لا يعد ولا ينحصر من الخصال والأحكام .

وقد يبدو للبعض أن العمل بهذا الحديث سهل ميسور فما الإشكال فى أن يحفظ الإنسان رأسه وما وعى ، وبطنه وما حوى ، وأن يذكر الموت والبلى ، وأن يترك زينة الحياة الدنيا إن أراد الآخرة ؟ ! ولكنه صعب جدًا عند التحقيق ولا يستطيعه إلا أهل الكمال والهمة العالية حتى يتحققوا بأمر الرسول فى طلب الحياء الحق .

فقد فهم الصحابة الحياء على أنه الإجلال والتوقير والتمجيد والحمد والثناء

---

(١) سبق تخريجه ص ٦٦ .

والخوف، وغير ذلك مما يستلزمه التوحيد والتقديس، وهذا مراد أيضًا فى معنى الحياء، إلا أنه ﷺ بيَّن لهم أن الأمر لا يقف عند هذا الحد بل هو أوسع من ذلك، وله علامات فى القلب والجوارح لابد من تحققها فيمن يريد أن يتحقق بالحياء الحق من الله تعالى.

فحفظ الرأس وما وعى معناه: أن يحفظ الإنسان عقله وفكره وسمعه وبصره ولسانه وأنفه من الاعتداءات الحسية والمعنوية.

أما الاعتداءات الحسية، فإنه لا يجوز له أن يفسد عضواً من هذه الأعضاء أو يعطلها عن أداء عملها الذى خُلقت من أجله كأن يفسد عقله بشرب المسكر من خمر وحشيش وأفيون وغير ذلك مما يُشرب أو يُمضغ أو يُشم أو يُدخن أو يخزن. . بأى وسيلة كانت . . تحت أى مسمى كان.

كما لا يجوز له أن يقف مكتوف الأيدى أمام من يريد الاعتداء على عضو من هذه الأعضاء بل عليه أن يدافع عنها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. . حتى يدفع عنها الضرر، وإن قُتل فى سبيلها فهو شهيد، أو قَتَل فهو معذور ما قُدِّرَ الأمر بقدره دون زيادة أو اعتداء.

وأما الاعتداءات المعنوية على هذه الأعضاء فبأن يوظفها الإنسان فى غير ما خلقها الله من أجله، بأن يستعملها فى الحرام والآثام.

فعقله يفكر ويخطط للحرام.

وسمعه مصروف لسماع الحرام من غناء ولهو وغيبة ونميمة وتجسس على الناس، وغير ذلك من محرمات السماع.

وبصره كذلك ينظر إلى الحرام من العورات والنساء والصور والمناظر المحرمة.

ولسانه ينطلق فى آفاته من الكذب والبهتان والغيبة والنميمة والسخرية

والاستهزاء والتنابز بالألقاب والسباب والفحش والتفحش، والحلف كذبًا وقول الزور وشهادة الزور، وتكفير الناس أو تفسيقهم بالباطل حتى يصل إلى الكفر والشرك وهو يشعر أو لا يشعر!!

وأنفه مستعمل فى شم الحرام كأن يتعمد شم روائح النساء أو يشم به المخدرات والمحرمات، أو يتجسس به على الناس بسوء الظن أو غير ذلك.

وهذه كلها وأمثالها اعتداءات معنوية تتنافى مع الحياء الحق من الله تعالى.

فالحياء الحق من الله تعالى يقتضى حفظ هذه الأعضاء جميعًا من الحرام، وتوظيفها فيما يعود على الإنسان بالنفع فى الدنيا والآخرة.

فحفظ العقل يكون بتدريبه على التأمل والنظر فى آيات الله المقروءة والمنظورة وتبصيره بأمور دينه ودنياه.

وحفظ السمع يكون بصونه عن سماع ما سبق من محرمات وصرفه إلى سماع القرآن والعلم والذكر وكل ما يحمد سماعه أو يحل.

وحفظ البصر يكون بصونه وغضه عن المحرمات وعن كل ما يستحيا منه، وصرفه إلى النظر فى الكون، والآيات القرآنية والعلم النافع وما أحل الله له.

وما قيل فيما سبق يقال فيما بقى من أعضاء.

ويلحق بالرأس وما وعى: حامل الرأس وعموده وهو العنق أو الرقبة. وهذا العضو يشترك فى معاصى كثيرة ولا يلتفت إليه.

فكل معصية تكون بالعين أو بالأذن أو بالشم أو باللسان يتصور فيها مشاركة الرقبة بالحركة إلى اليمين أو الشمال أو إلى فوق أو تحت أو إلى الأمام أو الخلف لتصويب النظر أو السمع أو غير ذلك.

بل هناك معاصٍ لا تتم إلا بواسطتها كتصعير الخد للناس تكبرًا وإعراضًا فذلك لا يكون إلا بليِّ العنق.

ولذلك قال مولانا جل جلاله على لسان لقمان لابنه وهو يوصيه: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١).

وقال عن النضر بن الحارث ـ كما قال ابن عباس ـ (٢): ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٣). والعِطْفُ: هو العنق، وثنيه: لويُه تكبرًا وتجبرًا.

وحفظه يكون عن جميع ذلك.

وقوله ﷺ: «والبطن وما حوى» معناه: أن تحفظه من وصول الحرام إليه حسًا ومعنى على نحو ماسبق فى حفظ الرأس وما وعى، فالبطن فيه القلب: فاحفظه من الكفر والشرك والرياء والنفاق والغل والحسد والبغض والعُجب وكل المعانى الفاسدة التى لا تصلح لقلوب أهل الإيمان.

وفى البطن المعدة والأمعاء فاحفظهما من الحرام كالخمر وأكل الربا، وأكل مال اليتيم وما فيه شبهة، ومن أكل الطعام الفاسد الذى يضر بهما حتى تحفظ بطنك مما يمنعك منه الطبيب، ومن كثرة الطعام وإن كان مباحًا حتى لا يفسد الجسد والروح معًا كما قال ﷺ: «ما ملأ آدمى وعاءً شرًا من بطن» (٤).

وفى البطن الفرج فاحفظه إلا من زوجتك، كما قال تعالى عن المؤمنين

---

(١) سورة لقمان: ١٨.

(٢) تفسير القرطبى ١٢ / ٢٠.

(٣) سورة الحج: ٩.

(٤) أخرجه الترمذى: أبواب الزهد، باب ما جاء فى كراهية كثرة الأكل، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد فى الأكل وكراهة الشبع.

المفلحين، الذين يرثون الفردوس: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (١) أى: فمن طلب قضاء شهوته فيما سوى ذلك أى فى غير طريق الزوجة من الزنا واللواط والأنكحة الفاسدة كالمتعة وغيرها.. حتى الاستمناء عند الجمهور فهو داخل تحت عموم الآية خلافًا للإمام أحمد، فكل ذلك حرام وفاعله معتد مجاوزٌ للحد فى الإثم والعدوان لم يحفظ فرجه، ولم يتحقق له الحياء من الله.

وكما ألحقنا الرقبة بالرأس نلحق بالبطن اليدين والرجلين فلا تمدنَّ يدك إلى حرام ولا تلمس بها الحرام ولا تسعَ بقدميك إلى الحرام ولا تمشِ بهما فى الحرام، فإذا التزم الإنسان بذلك فقد تحقق له الحياء من الله حقًا.

وكما نرى فقد استوعبت هاتان العبارتان (حفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى) جميع الأحكام الخاصة بالإنسان، وحفظت جميع ما أمر الله بحفظه من جسد الإنسان وروحه، وهذا من جوامع كلمه ﷺ.

والخلاصة: أن يحفظ الإنسان قلبه وجوارحه عن كل الحرام والآثام حتى ينتهى به المقام إلى أن يحفظ قلبه من الهمم الدنيِّة، والخطرات الشهوانية حتى يصل إلى كفه عما سوى الله بالكلية.

المبحث الثانى: ما يعينك على التحقق بالحياء الحق:

ثم ذكر رسول الله ﷺ ما يعين الإنسان على تحقيق معنى الحياء الحق فى النفس، وهما أمران فقال: فى الأمر الأول: «ولتذكر الموت والبلى» ومعناه: أن لا يغفل الإنسان عنهما وذلك بدوام ذكرهما، والموت ضد الحياة، والمقصود به هنا: الموت المعروف وهو مفارقة الروح للجسد.

---

(١) سورة المؤمنون: ٥-٧.

أما البلى : فهو الفناء والانتهاء .

إذن ليس الأمر متوقفًا عند تذكر الموت بل عليك أن تذكر أيضًا ما بعد الموت ، وهو البلى أى : فناء جسد الإنسان حيث تأكله الأرض ويأكله الدود ويصير ترابًا كأن لم يكن ، بل كل هذه الحياة وما فيها من حركة وعمل ، ومال وزينة وفتنة تصبح وكأن لم تكن .

وهذه هى الحقيقة ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ (١) ، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢) ، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ (٣) ، ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ﴾ (٤) ، ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ (٥) ، ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ . . تَعْمَلُونَ ﴾ (٦) .

إذن فلابد للإنسان من دخول باب الموت ، وورود حوضه ، وشرب كأسه . .

لكن متى يأتى ؟ أين تموت ؟ كيف تموت ؟ تموت شابًا . . شيخًا . . كهلاً . . فى أرضك . . فى أرض عدوك . . صحيحا . . سقيما . . غنيا . . فقيرًا ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٧) النتيجة واحدة . . أنك ستموت وتبلى .

عش خمسين سنة . . سبعين سنة . . مائة سنة . . فى النهاية ستموت « عش ما

---

(١) سورة آل عمران : ١٨٥ ، وسورة الأنبياء : ٣٥ ، وسورة العنكبوت : ٥٧ .

(٢) سورة القصص : ٨٨ .

(٣) سورة الرحمن : ٢٦ ، ٢٧ .

(٤) سورة الأنبياء : ٣٤ .

(٥) سورة الزمر : ٣٠ .

(٦) سورة الجمعة : ٨ .

(٧) سورة لقمان : ٣٤ .

شئت فإنك ميت ،وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به » (١) .

وإذا كان آخر العمر موتًا فسواء قصيره والطويلُ

المهم . . ماذا عملت فى عمرك هذا ؟ ستسأل « لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيم أفناه ؟ وعن شبابه فيم أبلاه ؟ وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ وماذا عمل فيما علم ؟» (٢) .

فأعدَّ للسؤال جوابا . . وللجواب صوابا .

ولو أنـا إذا متـنا تركنا لكان الموت راحة كل حى

ولكنا إذا متـنا بعثـنـا ونسأل بعد ذا عن كل شى (٣)

وسيندم كل إنسان مهما كان « ما من أحد يموت إلا ندم» قالوا : وما ندامته يا رسول الله ؟ قال :« إن كان محسنًا ندم أن لا يكون ازداد ، وإن كان مسيئا ندم أن لا يكون نزع » (٤) .

ولذلك قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ

---

(١) أخرجه الحاكم فى « المستدرك » (٤ / ٤٦٩) وصححه ووافقه الذهبى ، والطبرانى فى « الأوسط » (٤ / ٣٠٦)، وحسنه الهيثمى (مجمع الزوائد ١٠ / ٢٢٢) ، والألبانى بمجموع طرقه (السلسلة الصحيحة برقم ٨٣١) .

(٢) أخرجه الترمذى : أبواب صفة القيامة ، باب فى القيامة ، وحسنه الألبانى (صحيح الجامع برقم ٧٢٩٩) .

(٣) ديوان الإمام على رضى الله عنه ص ٢٢٠ .

(٤) أخرجه الترمذى : أبواب الزهد ، باب ٥٠ ، وضعفه الألبانى (ضعيف الجامع برقم ٥١٤٦) .

اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١)، وقال ﷺ لابن عمر وقد أخذ بمَنْكِبَيْه : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » فكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك (٢).

تأهب للذى لابد منه   فإن الموت ميقات العباد
أترضى أن تكون رفيق قوم   لهم زاد وأنت بغير زاد ؟! (٣)

هذه هى الحقيقة التى يغفل عنها أكثر الناس .

وتذكر هذه الحقيقة معين على تحقيق معنى الحياء فى القلب لكن أكثر الناس يهرب من تذكرها أو يحاول أن يبعدها عن ذهنه وقلبه . . أو ينساها فعلاً فى خضم أحداث الحياة .

فيعيش يومه دون أن يتفكر فى غده .

ويعيش حياته دون أن يذكر موته .

ويعيش لدنياه دون أن يذكر آخرته .

أما المؤمن الكيِّس فإنه لا ينسى هذه الحقيقة أبداً .

أننا ولدنا لنموت !!

لِدوا للموت وابنوا للخراب   فكلكمُ يصير إلى تباب (٤)

---

(١) سورة المنافقين : ٩ ـ ١١ .

(٢) أخرجه البخارى : كتاب الرقاق ، باب قول النبى ﷺ : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » .

(٣) البيتان ذكرهما الشيخ محمد أمين الكردى فى تنوير القلوب ص ٤٥١ غير منسوبين .

(٤) ديوان أبى العتاهية ص ٤٦ .

وعلامة الموت الميلاد، فإذا وُلد الإنسان كان ذلك علامة على أنه سيموت ، فكيف ينسى ذلك؟!

قال الشاعر :

أذان المرء حين الطفل يأتى وتأخير الصلاة إلى الممات

دليـــل أن محــــياه يســـير كما بين الأذان إلى الصلاة

ومن تذكر الموت والبلى تذكر ما بعد ذلك من حشر ونشر وحساب وآخرة، فلا يضيع وقته وعمره فى معصية الله وهو يعلم يقينا أنه ملاقيه فيعينه ذلك على الحياء منه ومراقبته فينصلح قلبه وحاله ، ولذلك أمرنا رسول الله ﷺ بكثرة ذكر الموت وحثنا على الاستعداد له دائما فقال ﷺ : « **أكثروا ذكر هادم اللذات** » أو « **هاذم اللذات** » (١) ، والمعنى قريب ففى الهذم معنى القطع ، وفى الهدم معنى الإزالة ؛ فالموت يقطع كل لذة ، ويزيل كل متعة ، ولذلك قال أبو حامد الغزالى : « معناه : نغصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى » (٢)، وقال أبوبكر بن العربى : « إذا تذكر العبد الموت وكان منه على رَصَد إذ هو له بالمرصاد ، انقطع أمله ، وكثر عمله ، وهانت عليه لذاته ، ولم يكن للدنيا قدرٌ عنده » (٣) . ولما سأله ﷺ رجل من الأنصار : يا نبىَّ الله من أكيسُ الناس وأحزم الناس ؟ قال : «**أكثرهم ذكرًا للموت ، وأكثرهم استعدادا للموت أولئك الأكياس ـ أى : العقلاء ـ ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة** » (٤).

---

(١) أخرجه الترمذى : كتاب الزهد ، باب ما جاء فى ذكر الموت ، وحسنه من حديث أبى هريرة .

(٢) إحياء علوم الدين ٤ / ٢٨٣٩ .

(٣) عارضة الأحوذى ٩ / ١٣٣ .

(٤) أخرجه ابن ماجه مختصرًا : كتاب الزهد ، باب ذكر الموت والاستعداد له ، والطبرانى فى « الكبير » (١٢ / ٤١٧) عن ابن عمر ، وحسنه المنذرى (الترغيب والترهيب ٤ / ٢٣٨) .

وقال ﷺ : « كفى بالموت واعظا » (١)، ومما يساعد على ذكر الموت زيارة القبور كلما تسنى للإنسان ذلك فكم فيها من منافع للقلب ، وعظات للنفس حيث يرى الإنسان فيها الحقيقة التى يغفل عنها . . يرى الأمهات والآباء . . الأجداد والأبناء . . الإخوان والأصدقاء . . الأقارب والجيران . . كانوا مثلَ ما كان . . وسيصبح مثل ما أصبحوا . . لامال ولا جاه . . ولا عز ولا سلطان . . ولا ملك ولا ديوان ولا شئ إلا الديان ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ (٢) ، ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ (٣)، ولذلك قال ﷺ : « نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها » (٤) وزاد الترمذى : « فإنها تُذكِّرُ الآخرة » ، وفى رواية ابن ماجه : « فإنها تزهد فى الدنيا » (٥) ، وفى رواية له أخرى : « فإنها تذكركم الموت » (٦) وذكر الموت لا شك يحقق فى النفس معنى الحياء .

المبحث الثالث : علاقة ذكر الموت والبلى بالحياء:

تتضح هذه العلاقة من وجهين :

---

(١) أخرجه البيهقى فى « شعب الإيمان » (١٣ / ١٣٦) ، والقضاعى فى « مسند الشهاب » (١ / ١١٤) عن عمار بن ياسر، وقال الألبانى : « ضعيف جداً » (السلسلة الضعيفة برقم ٥٠٢) .

(٢) سورة الأنعام : ٩٤ .

(٣) سورة مريم : ٩٣ ـ ٩٥ .

(٤) أخرجه مسلم : كتاب الجنائز ، باب استئذان النبى ﷺ ربه عز وجل فى زيارة قبر أمه ، عن بُريدة عن أبيه .

(٥) أخرجه الترمذى : أبواب الجنائز ، باب ما جاء فى الرخصة فى زيارة القبور ، وقال : « حسن صحيح » عن بريدة ، وابن ماجه : كتاب الجنائز ، باب ما جاء فى زيارة القبور ، عن ابن مسعود ، وصححه الألبانى(صحيح الجامع برقم ٢٤٧٥) .

(٦) أخرجه ابن ماجه : كتاب الجنائز ، باب ما جاء فى زيارة قبور المشركين ، عن أبى هريرة ، وصححه الألبانى (صحيح ابن ماجه برقم ١٢٨٧) .

إما أن يكون المعنى : أن الحياء من الله حق الحياء لا يتم إلا بذكر هذه الحقيقة ، وهو الوجه الأول .

وإما أن يكون المعنى : أن ذكر الموت والبلى يساعدك على أن تقصر أملك مما يساعدك على أن تتحقق بكل ما ذكرت من معانى ، وكلاهما صحيحان مرادان .

وأما الأمر الثانى : فهو مرتب على الأمر الأول وهو قوله ﷺ : «**ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء**» وكأن الإنسان بعد أن يتذكر الموت والبلى ، تتحقق فيه إرادة الآخرة ، فدله على ما يعين على تحقيق هذه الإرادة ، وانتقاله من إرادة إلى فعل ، وذلك بالزهد فى الدنيا .

فعاد الأمر كله فى تحقيق الحياء من الله إلى الزهد فى الدنيا وترك زينتها ، والرغبة فيما عند الله من ثواب وخير .

والقرآن ملىء بالآيات التى تؤيد هذا المعنى وتحث عليه ويكفى أن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : ﴿**وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ**﴾ (١) ، وقال : ﴿**وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ** ـ أى : لنختبرهم فيه فحلالها حساب وحرامها عذاب ـ **وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**﴾ (٢) . . فقد آتاك الله خيرًا مما آتاهم . . آتاك الإيمان والقرآن والتوحيد والمعرفة والتقوى والهدى والعلم والبركة والنور وسورة الفاتحة . . السبع المثانى ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (٣) ، وقد كان النبى ﷺ متحققا بذلك على الوجه الأكمل فالخطاب للمداومة على ما هو عليه والمراد أمته .

---

(١) سورة الضحى : ٤ .

(٢) سورة طه : ١٣١ .

(٣) سورة الحجر : ٨٧ ـ ٨٨ .

وليس معنى ترك زينة الدنيا أى تركها بالكلية ، بل ترك ما كان منها محرمًا أو مكروهًا أو على خلاف الأولى أو ما يؤدى إلى ذلك ، على درجات متفاوتة بين الناس ، وبها تتفاوت درجة الحياء بعدًا وقربًا ، فمن فعل جميع ذلك فقد استحيا من الله حقًا ، ومن استقر فى هذا المقام هنؤ له العيش ، وطابت له الحياة ، وسعد فى دنياه وفى أخراه .

وقديمًا قال أبو تمام :

يعيش المرءُ ما استحيا بخير ... ويبقى العود مَا بَقِيَ اللّحَاءُ

فلا والله ما فى العيش خيرٌ ... ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ

إذا لم تَخْشَ عاقبةَ الليالى ... ولم تَستَحى فاصنع ما تشاءُ (١)

المبحث الرابع : أسباب اكتساب الحياء :

ومما يعين على اكتساب خلق الحياء وتحققه فى النفس عشرة أمور :

(١) تقوية الإيمان . . فإن الحياء من الإيمان وعلى قدره .

(٢) ترك الذنوب (٢) . . مع الرغبة فى الارتقاء فى التعامل الإنسانى .

(٣) المحافظة على الفرائض ، والنوافل ، والفضائل .

(٤) التخلى عن كل سلوك ينافى الحياء ، مع التحلى بمقام المراقبة .

(٥) تعلم خلق الحياء ، وفقهه ، ومعرفة منزلته عند الله ، وفضله .

---

(١) شرح ديوان أبى تمام (٢ / ٣١١) للخطيب التبريزى .

(٢) قال ابن القيم : « ومن عقوباتها ـ أى : الذنوب ـ ذهاب الحياء الذى هو مادة الحياة للقلب » وقال : « فالذنوب تضعف الحياء من العبد حتى ربما انسلخ منه بالكلية . . . ، وبين الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين ، وكل منهما يستدعى الآخر ، ويطلبه حثيثًا » (الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى ص ٧٠ ، ٧١) .

(٦) الاقتداء بحياء النبى ﷺ ، وحياء أصحابه ، وآل بيته الأطهار .

(٧) مجاهدة النفس ، وتدريبها على اكتسابه ، مستعينًا بالدعاء على تحقيق ذلك .

(٨) كثرة مجالسة أهل الحياء ، وتأمل أحوالهم ، ومجانبة أهل البذاء والقحة ؛ فإن الطباع تسرق من الطباع ، والحياء يحيا بمجالسة من يستحيا منه .

(٩) تصور أنه فى حضرة من يُستحيا منه من الخلق ؛ حتى كأنه يراه فيترقى للاستحياء من الحق كأنه يراه .

(١٠) إشاعة روح الحياء فى المجتمع ، والتناصح به ، وتنشئة الأحداث عليه ، وتنميته فيهم .

المبحث الخامس : علامات المستحيى :

للمستحيى علامات كثيرة من أهمها عشر علامات :

(١) مراقبة الله خاصة فى الخلوات .

(٢) عدم المجاهرة بالمعاصى .

(٣) أن لا يُرى فى موضع يستحيا منه .

(٤) الاحتشام والتستر .

(٥) غضُّ الطرْف . . وعفة اللسان .

(٦) عدم سؤال الناس . . وترك الإلحاح فى الطلب .

(٧) ألا يرد قاصدًا . . يستطيع قضاء حاجته .

(٨) أداء الواجبات تجاه من قصّر فى حقوقه .

(٩) الإغضاء والتغافل عن زلات الآخرين ، مع الإحسان للمسىء دون هوان .

(١٠) مراعاة مشاعر الآخرين بعدم إزعاجهم . . أو إحراجهم . . أو فرض نفسه عليهم . . أو غير ذلك .

الفصل الثامن

صور اجتماعية منتشرة

تتنافى مع الحياء وكماله

الفصل الثامن

صور اجتماعية منتشرة تتنافى مع الحياء وكماله

يعتمد هذا الفصل على الرصد المجتمعى ، ومعايشة البيئات المختلفة ، والضابط الأصلى فيه ليس العرف أو البيئة ، وإنما ما ذكرنا من ضوابط الشرع . . ونكتفى بذكر ما يلى دون حصر أو استقصاء مع مراعاة اختلاف الحكم الفقهى من حرام إلى مكروه إلى ما هو خلاف الأولى . . . فمنها :

* المجاهرة بالمعاصى عمومًا ، ويلحق بذلك إخبار المرء بقبح أفعاله التى سترها الله عليه (١) .

* التبرج خاصة مع الإمعان فى إبراز المفاتن التى تثير الغرائز .

* تشبه النساء بالرجال ، والرجال بالنساء .

* الجلوس فى الطرقات . . وتتبع المارة بالأنظار .

* الجلوس فى الأماكن العامة والمواصلات ، مع وقوف المرضى وكبار السن .

* الجلوس فى المواصلات فى الأماكن المخصصة للنساء والكبار والمرضى . . أثناء وجودهم .

* الجلوس أمام الكبار واضعًا رجلاً على الأخرى .

* مخاطبة الكبار وأهل العلم من جلوس . . وهم واقفون .

* رفع الصوت أمام الآباء والأمهات والمعلمين ومَن فى حكمهم .

---

(١) قال ابن القيم : « والحامل له على ذلك انسلاخه من الحياء ، وإذا وصل العبد إلى هذه الحالة لم يبق فى صلاحه مطمع ، وإذا رأى إبليس طلعة وجهه حياه » (الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى ص ٧٠ ، ٧١) .

* استعمال آلات التنبيه عمومًا دون ضرورة ، وفى الأفراح خصوصًا بشكل مزعج .

* إزعاج الناس وترويعهم فى الأفراح ، وبعض المناسبات كالعيدين ، ورمضان ، بالألعاب النارية .

* الضحك بصوت مرتفع فى الأماكن العامة .

* الضحك أو المزاح فى المقابر .

* رقص العروسين فى حفلات الزفاف .

* حضور حفلات الرقص الجماعى (الديسكو وغيره) .

* الكلام فى الهاتف بصوت مرتفع فى الأماكن العامة .

* التدخين فى المصاعد ، ووسائل المواصلات ، والأماكن المغلقة عمومًا .

* الجلوس فى مجالس العلم ، وخطبة الجمعة مادًا قدميه فى وجه المحاضر والخطيب .

* الكلام أثناء دروس العلم والمحاضرات دون ضرورة .

* تخطى الرقاب أثناء خطبة الجمعة ودروس العلم .

* استراق النظر فى البيوت خصوصًا عند دخولها وأثناء زيارتها .

* الدخول فى بيوت الآخرين وممتلكاتهم دون استئذان .

* إطالة وقت الزيارة خاصة عند المرضى وأصحاب الأعمال الكثيرة دون مراعاة لظروفهم ، أو طلب منهم بالبقاء .

* التناجى بين اثنين فى حضور ثالث .

❊ معاكسة النساء والفتيات وملاحقتهن فى الطرقات والهواتف .

❊ تعمد النظر والتدقيق أثناء حديث الرجال للنساء الضرورى والعكس .

❊ النظر فى هواتف وخصوصيات الآخرين دون إذنهم .

❊ استخدام هاتف العمل فى المصالح الشخصية .

❊ التشاغل فى وقت أداء العمل (الدوام) بالمنافع والمصالح الشخصية .

❊ التوقيع فى دفاتر الحضور والانصراف عن الآخرين مع عدم حضورهم أصلاً أو انصرافهم مبكرين .

❊ عدم إتقان العمل استهتارًا أو انشغالاً بعمل آخر .

❊ التهرب من أداء الأعمال المكلف بها وأخذ المرتب كاملاً .

❊ مراقبة تصرفات الآخرين دون ضرورة .

❊ إهمال العارية أو تعمد عدم ردها مطلقًا أو فى موعدها .

❊ إهمال المرافق العامة التى يستخدمها الإنسان بما يؤذى من بعده .

❊ إيثار النفس دائمًا على الآخرين ولو كان بهم خصاصة .

❊ رفع الآذان مع قبح الصوت وتأذى الناس .

❊ إمامة الآخرين مع التيقن بكراهيتهم لها .

❊ التفاخر والتعالى على الفقراء والمعدومين بالمقتنيات الثمينة .

❊ خُلْف الوعد دون ضرورة تدعو لذلك .

❊ كثرة المجادلة والمماراة تعالمًا وتفاصحًا دون قصد الوصول إلى الحق .

* السباب وكَيْل الاتهامات عند الاختلاف فى الرأى .
* التلفظ بفُحش القول عمومًا وفى الطرقات والأماكن العامة خصوصًا .
* التدخل فيما لا يعنى من الأقوال والأفعال والأحوال .
* استعمال سيف الحياء فى الحصول على ما يريد الإنسان من مكاسب وأغراض أيًا ما كانت .
* الغش فى الامتحانات .
* كثرة سؤال الناس .
* التسول واحتراف سؤال المال من الآخرين .
* شراء الأصوات الانتخابية وبيعها .
* عدم الاعتناء بالنظافة الشخصية .
* تعليق الملابس الداخلية للرجال والنساء ـ خاصة ـ ظاهرة بوضوح على المناشر .
* مخاطبة الإنسان وهو على حالة لا يجوز فيها مخاطبته .
* التجشؤ أمام الناس .
* الأكل فى الطرقات .
* رمى القمامة فى الشارع .
* التنخم فى الطريق دون دلكها .
* قضاء الحاجة فى الطريق أمام أعين الناظرين .

* عدم اتباع قواعد تنظيم المرور .

* لعب الكرة في طريق المشاة .

* وضع السيارة فى أماكن خاصة بمرور المشاة ، أو سد الطريق بها .

* غسل السيارات فى الطرقات مما يسبب الأذى للآخرين .

* إحراق قش الأرز فى الأراضى الزراعية للتخلص منه وإحراق القمامة أمام المنازل . . وإيذاء الآخرين وإضرارهم صحيًا بهذا .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يحفظنا من كل ما يتنافى مع العفة والأدب ، والحياء ، وأن يرفع بذلك ذكرنا بين أهل الأرض ، وأهل السماء .

الخاتمة

فى أهم نتائج هذا البحث

الخاتمة

فى أهم نتائج هذا البحث

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وبعد هذا البحث فى خلق من أهم الأخلاق التى يجب على المسلم أن يتحلى بها ؛ ليكون ضابطًا لأخلاقه وسلوكه . . ازددت يقينًا بما بدأت به ؛ من أنه خلق جامع لمحاسن الأخلاق ، مانع من رذائلها . . حافظ لكرامة الإنسان ، معرب عن إنسانيته وكمال إيمانه ، حافظ لقيم المجتمع ، معرب عن تحضره وبلوغ رشده . .

وقد تبين من هذه الدراسة : أهمية خلق الحياء للفرد والمجتمع على حدٍّ سواء ، وعناية الإسلام البالغة به ؛ حتى جعله النبى ﷺ قرين الإيمان . . وشعبة من شعبه ، يتبع أحدهما الآخر . . وجودًا وعدمًا ، قوة وضعفا ، إيجابا وسلبا . . وجعله الدين كله ، ورمز الصلاح ، وميزان الأشياء حسنًا وقبحًا ، وحذر من تركه ، ونهى عن النصح والوعظ فيه ، ما دام منضبطًا بميزان الشرع . . وجعله طريق الجنة ، وبه نجاة الإنسان .

كما وضحت هذه الدراسة : الفارق بين حياء المخلوق . . وحياء الخالق بما يرفع الخلط ، ويزيل الوهم ، ويجرد أوصاف الرب سبحانه وتعالى من المماثلة أو المشابهة والمناسبة لصفات المخلوقين دون تعطيل لها أو تكييف أو تحريف لها أو تزييف .

كما كشفت هذه الدراسة عن الضابط الذى يفرق به الإنسان بين الحياء الممدوح المطلوب ، والحياء المذموم الذى هو أقرب إلى العجز والخور منه إلى الحياء ؛ لينكشف بذلك اللبس الذى يقع فيه كثير من الناس فينسبون إلى الحياء ما ليس منه ، ويستحيون مما لا يستحيا منه ، ومعرفة هذا فى غاية الأهمية لأنه موصل إلى الحياء الحق الذى يجب أن يتحلى به الإنسان دون خلط أو زيف . .

ولابد للإنسان فى سبيل الوصول إلى ذلك أن يتأمل طويلاً فى هذه النماذج الرائعة الراشدة فى تاريخ الإنسانية ، والتى رسمتها سيرته ﷺ ، وسيرة آل بيته وأصحابه رضوان الله عليهم . . مجسدة حياءه وحياءهم ؛ ليكون ذلك دافعًا إلى اكتساب الحياء من مصادره الأصيلة ، بالاقتداء بهم والسير على طريقتهم وطريقهم .

هذا بالإضافة إلى ما ذكرناه من أسباب أخرى تعين على التحقق بالحياء بالحق من ترك الذنوب ، والمجاهدة ، ومجالسة أهل الحياء . . حتى تظهر فيه علامات المستحيى من المراقبة فى الخلوات قبل الجلوات ، والاحتشام والتستر ، والإغضاء والتغافل ، وعدم التقصير فى الحقوق مع مراعاة المشاعر والواجبات ، ولا يتحقق له ذلك إلا بدراسة خلق الحياء وفقهه فى ضوء الكتاب والسنة ، وهذا ما أوصى به على العموم جميع المربين وسائر المسؤولين عن المؤسسات الدعوية والإعلامية والثقافية والتعليمية والتربوية والاجتماعية .

ولعل هذه الدراسة تكون معينة للطالبين على فهم هذا الخلق على وجهه الأسنى . . مرغبة فيه ابتغاء مرضاة العلى الأعلى . . مساهمة فى نشره وفقهه والتخلق به . . حتى ترتفع أعلامه ، وتنتشر بين الأنام فضائله وأحكامه .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا الحياء والأدب ، وأن يبلغنا ـ بفضله وكرمه وجوده ـ أعلى الرتب ، إنه ولى ذلك والقادر عليه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

هذا وقد كان الفراغ منه يوم الأربعاء ، التاسع من شهر رجب الحرام الفرد ، سنة ألف وأربعمائة وثلاث وثلاثين من الهجرة ؛ الموافق للثلاثين من شهر مايو سنة ألفين واثنتى عشرة من الميلاد .

المراجع

المراجع

١ ـ الآداب الشرعية والمنح المرعية ، لشمس الدين أبى عبد الله محمد بن مفلح المقدسى الحنبلى ، تحقيق / عامر الجزار ، أنور الباز ، ط . دار الوفاء ، الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م .

٢ ـ إتحاف الأخيار بأصح العقائد والأذكار ، لشيخنا محمد خليل الخطيب ، ط . جمعية شاعر الرسول ﷺ ، طنطا ، الأولى ، ٢٠٠٢م .

٣ ـ أحاديث مختارة من موضوعات الجوزقانى وابن الجوزى ، للإمام شمس الدين الذهبى ، تحقيق عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائى ، ط . مكتبة الدار ، المدينة المنورة ، الأولى ، ١٤٠٤هـ .

٤ ـ إحياء علوم الدين ، للإمام أبى حامد الغزالى ، ط . كتاب الشعب .

٥ ـ أدب الدنيا والدين ، للإمام الماوردى ، تحقيق / محمد فتحى أبو بكر ، ط . دار الريان للتراث ، الدار المصرية اللبنانية ، الأولى ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .

٦ ـ أسباب النزول ، لأبى الحسن الواحدى ، النيسابورى ، ط . مطبعة الحلبى ، الأولى ، ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠م .

٧ ـ أسباب نزول القرآن ، للإمام جلال الدين السيوطى ، تحقيق / د حمزة النشرتى ، ط . مؤسسة الأهرام .

٨ ـ الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، لابن عبد البر (هامش الإصابة) ، ط . دار صادر ، الأولى ، ١٣٢٨هـ .

٩ ـ الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير ، للدكتور محمد أبو شهبة ، ط . مكتبة السنة ، الرابعة ، ١٤٠٨هـ .

١٠ـ تاريخ بغداد مدينة السلام ، للإمام أبي بكر الخطيب البغدادى ، تحقيق صدقى جميل العطار ، ط . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ،الأولى ، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م .

١١ ـ تاريخ دمشق ، للحافظ على ابن عساكر ، تحقيق محب الدين أبى سعيد عمر بن غرامة العمرى ، ط . دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٥م .

١٢ ـ الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ، للحافظ المنذرى ،تحقيق / د . مصطفى عمارة ، ط ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .

١٣ ـ التعريفات ، للشريف أبى الحسن الجرجانى ، ط . مطبعة ومكتبة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ، ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م .

١٤ ـ تفسير الألوسى (روح المعانى فى تفسير القرءان العظيم والسبع المثانى)، لشهاب الدين السيد محمود الألوسى ،ط . دار الحديث ،القاهرة، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م .

١٥ ـ تفسير ابن جزى الكلبى (التسهيل لعلوم التنزيل) ، تحقيق / محمد سالم هاشم ، ط . دار الكتب العلمية ،بيروت ، الأولى ، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م .

١٦ ـ تفسير ابن عاشور (التحرير والتنوير) ، ط . الدار التونسية للنشر ،تونس ، ١٩٨٤م .

١٧ ـ تفسير ابن عجيبة (البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد) ، تحقيق أحمد عبدالله القرشى ، ط . د/ حسن عباس زكى ، القاهرة ، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م .

١٨ ـ تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز) ، لابن عطية الأندلسى ، تحقيق / عبدالسلام عبد الشافى محمد ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت ، الثانية ،٢٠٠٧م .

١٩ ـ تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) ، ط . مكتبة مصر .

٢٠ ـ تفسير الثعلبى (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) ، لأبى الحق أحمد بن محمد الثعلبى النيسابورى ، تحقيق / أبى محمد بن عاشور ، ط . دار إحياء التراث العربى ، لبنان ، الأولى ، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م .

٢١ ـ تفسير الزمخشرى (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل) لأبى القاسم جار الله محمود الزمخشرى ، ط . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

٢٢ ـ تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل آى القرآن) ، ط . دار السلام ، القاهرة ، الأولى ، ١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٥م .

٢٣ ـ تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) ، ط . دار الحديث ، تحقيق / د. محمد إبراهيم الحفناوى ، د. محمود حامد عثمان ، الأولى ، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م .

٢٤ ـ تفسير القشيرى (لطائف الإشارات) ، للإمام أبى القاسم عبد الكريم القشيرى ، تحقيق / د. إبراهيم بسيونى ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الثانية ، ١٩٨١م .

٢٥ ـ تفسير الماوردى (النكت والعيون) ، تحقيق / خضر محمد نصر ، ط . وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، الكويت ، الأولى ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م .

٢٦ ـ التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، لجنة من العلماء ، بإشراف مجمع البحوث الإسلامية ، الثانية ، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م .

٢٧ ـ تنبيه المغترين ، للإمام الشعرانى ، ط . عبد الحميد أحمد حنفى .

٢٨ ـ تنوير القلوب فى معاملة علام الغيوب ، للشيخ محمد أمين الكردى ، ط . المؤلف ، ١٨٤٢هـ .

٢٩ ـ تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، لابن مسكويه ، تحقيق / ابن الخطيب ، ط . المطبعة المصرية ومكتبتها ، الأولى .

٣٠ ـ جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم ، لابن رجب الحنبلى ، ط . دار الريان للتراث ، القاهرة ، الأولى، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .

٣١ ـ الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى ، للإمام ابن القيم الجوزية .

٣٢ ـ الجواهر اللؤلؤية فى شرح الأربعين النووية ، لمحمد بن عبدالله الجردانى الدمياطى ، ط . اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع ، الثانية ، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م .

٣٣ ـ حاشية الصاوى على الجلالين ، للشيخ أحمد الصاوى المالكى ، ط . دار إحياء الكتب العربية ، مصر .

٣٤ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، لأبى نعيم الأصبهانى ، ط . دار الكتاب العربى ، بيروت ، الثانية ، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .

٣٥ ـ خلق المسلم ، للشيخ محمد الغزالى ، ط . دار الكتب الإسلامية ، التاسعة ، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .

٣٦ ـ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، لأبى بكر البيهقى ، تحقيق د / عبدالمعطى قلعجى ، ط . دار الريان للتراث ، القاهرة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الأولى ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .

٣٧ ـ ديوان أبى العتاهية ، لأبى إسحق إسماعيل بن القاسم ، ط . الكتب العلمية ، بيروت .

٣٨ ـ ديوان الإمام على بن أبى طالب ، جمع وترتيب عبد العزيز الكرم ، الأولى ، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م .

٣٩ ـ ديوان الفرزدق ، شرح الأستاذ على قاعود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الأولى ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .

٤٠ ـ الذريعة إلى مكارم الشريعة ، للراغب الأصفهانى ، تحقيق د/ أبو اليزيد العجمى ، ط . دار الوفاء ، المنصورة ، الثانية ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م .

٤١ ـ الرسالة القشيرية ، للإمام القشيرى ، تحقيق د / عبد الحليم محمود بن الشريف ، ط . دار الكتب الحديثة ، الأولى ، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م .

٤٢ ـ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، للإمام أبى حاتم محمد بن حبان ، تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد ، محمد عبد الرازق حمزة ، محمد حامد الفقى مطبعة السنة المحمدية .

٤٣ ـ رياض الصالحين ، للإمام النووى ، ط . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، العاشرة ، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م .

٤٤ ـ الزهد ، للإمام أحمد بن حنبل ، ط . دار عمر بن الخطاب للنشر والتوزيع .

٤٥ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للشيخ محمد ناصر الدين الألبانى ، ط . مكتبة المعارف ، الأولى .

٤٦ ـ سنن ابن ماجه ، للحافظ أبى عبد الله ابن ماجه ، تحقيق / محمد فؤاد عبدالباقى ، ط . دار الريان للتراث ، القاهرة .

٤٧ ـ سنن أبى داود ، للحافظ أبى داود السجستانى ، تحقيق د/ السيد محمد السيد وآخرين ، ط . دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .

٤٨ ـ سنن الترمذى ، للإمام أبى عيسى محمد بن عيسى الترمذى ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين ، ط . دار الرسالة العالمية ، بيروت ، لبنان ، الأولى .

٤٩ ـ سنن الدارمى ، للإمام عبدالله الدارمى ، تحقيق / سيد إبراهيم وعلى محمد على ، ط . دار الحديث ، القاهرة ، الأولى ، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م .

٥٠ ـ السنن الكبرى ، للإمام أبى بكر البيهقى ، تحقيق إسلام منصور عبد الحميد ، ط . دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م .

٥١ ـ سنن النسائى ، شرح الإمامين السيوطى والسندى ، تحقيق د/ السيد محمد السيد ، أ/ على محمد على ، ط . دار الحديث ، القاهرة ، الأولى ، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .

٥٢ ـ سير أعلام النبلاء ، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ط . مؤسسة الرسالة ، الحادية عشرة ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م .

٥٣ ـ شرح الأربعين النووية ، للإمام النووى ، تحقيق / محمد صديق المنشاوى ، ط . دار الفضيلة ، القاهرة .

٥٤ ـ شرح ديوان أبى تمام ، للخطيب التبريزى ، تحقيق راجى الأسمر ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، الثانية ، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م .

٥٥ ـ شعب الإيمان ، للإمام أبى بكر البيهقى ، أشرف على تحقيقه مختار أحمد الندوى ، ط . مكتبة الرشد ، الرياض ، الأولى ، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م .

٥٦ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، لأبى الفضل القاضى عياض ، تحقيق / عامر الجزار ، ط . دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م .

٥٧ ـ الشمائل المحمدية ، لأبى عيسى الترمذى ، تحقيق / سيد عمران ، ط . دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م .

٥٨ ـ صحيح الترغيب والترهيب للمنذرى ، للشيخ محمد ناصر الدين الألبانى ، ط . مكتبة المعارف ، الأولى ، ١٤٢١هـ .

٥٩ ـ صحيح الجامع الصغير وزيادته ، للشيخ محمد ناصر الدين الألبانى ، تحقيق/ زهير الشاويش ، ط . المكتب الإسلامى ، بيروت ، الثالثة ، ١٤٠٨هـ .

٦٠ ـ صحيح سنن أبى داود ، للشيخ محمد ناصر الدين الألبانى ، ط . مكتب التربية العربى ، الأولى ، ١٤٠٩هـ .

٦١ ـ صحيح سنن ابن ماجه ، للشيخ محمد ناصر الدين الألبانى ، ط . مكتب التربية العربى ، الأولى ، ١٤٠٧هـ .

٦٢ ـ صحيح مسلم بشرح النووى ، تحقيق / عصام الصبابطى وآخرين، ط . دار الحديث ، القاهرة ، الأولى ، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م .

٦٣ ـ ضعيف الجامع الصغير وزيادته ، للشيخ محمد ناصر الدين الألبانى ، تحقيق / زهير الشاويش ، ط . المكتب الإسلامى ، بيروت ، الثانية ، ١٤٠٨هـ .

٦٤ ـ ضعيف سنن الترمذى ، للشيخ محمد ناصر الدين الألبانى ، تحقيق/ زهير الشاويش ، ط . المكتب الإسلامى ، بيروت ، الأولى ، ١٤١١هـ .

٦٥ ـ عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى ، لأبى بكر ابن العربى ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت ، الأولى ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .

٦٦ ـ العمر والشيب ، للإمام ابن أبى الدنيا ، تحقيق د / نجم عبد الرحمن خلف ، ط . مكتبة الرشد ، الرياض ، الأولى ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م .

٦٧ ـ غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ، لمحمد بن أحمد السفارينى الحنبلى ، تحقيق/ محمد عبد العزيز الخالدى ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت ، الثانية ، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م .

٦٨ ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، للحافظ ابن حجر العسقلانى ، ط . دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، الثانية .

٦٩ ـ فيض القدير ، شرح الجامع الصغير . للإمام المناوى ، ط . دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م .

٧٠ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، للشيخ إسماعيل العجلونى ، ط . دار إحياء التراث .

٧١ ـ كشف اللثام شرح عمدة الأحكام ، لمحمد بن أحمد بن سالم السفارينى ، تحقيق / نور الدين طالب ، وزارة الأوقاف ، الكويت ، الأولى ، ١٤٢٨هـ .

٧٢ ـ لسان العرب ، لابن منظور ، ط . دار المعارف ، القاهرة .

٧٣ ـ المجروحين من المحدثين ، لابن حبان البستى ، تحقيق/ حمدى عبد المجيد السلفى ، ط . دار الصميعى ، الأولى ، ١٤٢٠هـ .

٧٤ ـ المجموع شرح المهذب ، للإمام يحيى بن شرف الدين النووى ، دار الفكر .

٧٥ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للإمام على بن أبى بكر الهيثمى ، ط . مؤسسة المعارف ، ١٤٠٦هـ .

٧٦ ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، لابن القيم ، ط . دار التراث العربى ، القاهرة ، الأولى ، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م .

٧٧ ـ المستدرك على الصحيحين ، للإمام أبى عبد الله الحاكم ، تحقيق/ مقبل بن هادى الوادعى ، ط . دار الحرمين ، القاهرة ، الأولى ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م .

٧٨ ـ المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط . المكتب الإسلامى ، بيروت ، الخامسة ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

٧٩ ـ مسند البزار (البحر الزخار) للإمام أبى بكر أحمد بن عمرو البزار ، تحقيق د/ محفوظ عبد الرحمن زين الله ، ط . مؤسسة علوم القرآن ، بيروت ، الأولى ، ١٤٠٩هـ .

٨٠ ـ مسند الشهاب ، للقاضي محمد بن سلامة القضاعي ، تحقيق / حمدي عبد المجيد السلفي ، ط . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الأولى ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

٨١ ـ المصنف ، لابن أبي شيبة ، تحقيق / محمد عوامة ، ط . دار القبلة ، ومؤسسة علوم القرآن ، الأولى ، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م .

٨٢ ـ المصنف ، للإمام عبد الرزاق الصنعاني ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، منشورات المجلس العلمي .

٨٣ ـ المعجم الأوسط ، للإمام الطبراني ، تحقيق / طارق بن عوض الله ، عبد المحسن الحسيني ، ط . دار الحرمين ، القاهرة ، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م .

٨٤ ـ المعجم الكبير ، للإمام الطبراني ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط . مكتبة ابن تيمية ، الثانية .

٨٥ ـ المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الأحياء من الأخبار ، للحافظ العراقي ، ط . كتاب الشعب (على هامش الإحياء) .

٨٦ ـ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ، للإمام شمس الدين بن قيم الجوزية ، تحقيق هاني الحاج ، طبعة المكتبة التوفيقية .

٨٧ ـ المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ، ط . دار المعرفة ، بيروت ، الأولى ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م .

٨٨ ـ المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، للإمام ابن العباس أحمد بن عمر القرطبي ، تحقيق / محيي الدين ديب مستو وآخرين ، ط . دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، الثالثة ، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م .

٨٩ ـ مكارم الأخلاق ، لابن أبي الدنيا ، تحقيق / محمد عبدالقادر أحمد عطا ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الأولى ، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م .

٩٠ ـ موسعة نضرة النعيم فى مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ ، لمجموعة من المتخصصين ، ط . دار الوسيلة ، جدة ، الأولى ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م .

٩١ ـ الموطأ ، للإمام مالك بن أنس ، تحقيق د / بشار عواد معروف ، ط . دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، الثانية .

٩٢ ـ النهاية فى غريب الحديث والأثر ، للإمام مجد الدين بن الأثير ، تحقيق / د عبد الحميد هنداوى ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م .

٩٣ ـ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار ، للإمام الشوكانى ، ط . المكتبة التوفيقية .